توماس دي كوينسي

مكتبة ٦٣٣

أيام إيمانويل كانط الأخيرة

ترجمة: عبد المنعم المحجوب

مراجعة: وليد بن أحمد

صوفيا Σοφία

مسكلياني

مكتبة | 633

أيام
إيمانويل كانط
الأخيرة

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة
Thomas De Quincey
The Last Days of Immanuel Kant

توماس دي كوينسي

مكتبة | 633

أيام إيمانويل كانط الأخيرة

ترجمة: عبد المنعم المحجوب

مراجعة: وليد بن أحمد



الكاتب: **توماس دي كوينسي**

عنوان الكتاب: **أيّام إيمانويل كانط الأخيرة**

ترجمة: **عبد المنعم المحجوب**

مراجعة: **وليد بن أحمد**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-104-4**

الطبعة الأولى: 2020

جميع الحقوق محفوظة للناشر©



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

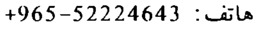
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني : sophiakwt17@gmail.com

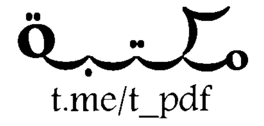
هاتف : 52224643-965+





بــرز الماضــي جليًّا وحيًّــا تمامًا كأنه يوجـد الآن، أمّــا الحاضــر فقد تلاشــى بعيدًا في مدًى غامضٍ لا نهاية له.

دي كوينسي



تقديم

مكتبة
t.me/t_pdf

من البديهيّ أنّ كلَّ شخص على قدرٍ من التّعليم سيهتمّ بتاريخ إيمانويل كانط الشخصيّ؛ فمثل هذا الرَّجل العظيم يجب أن يكون على الدوام هدفًا للفضول المعرفيّ، أمّا افتراضُ أنّ القرَّاء لا يكترثون لكانط فعلًا، فهو من قبيل الإقرار بافتقارهم إلى الثقافة، وإذا حدث واكتشفنا أنّهم لا يولونه قدرًا من الاهتمام حقًّا، فسيكون من باب المجاملة على الأقلّ أن نفترض عكس ذلك. واعتمادًا على هذا المبدأ سأقدّم لهم نبذةً عن حياة كانط وعاداته الشخصيّة، مستمدَّة من السجلّات الأصليَّة لأصدقائه وتلاميذه.

لم تكن أعمال كانط تُعامَل بنفس الاهتمام الذي يثيره اسمه (دون أي تعصُّب من جانب الجمهور في هذا البلد) لكن هذا ربما يعود إلى ثلاثة أسباب:

أوّلًا، اللّغة التي كُتبت بها هذه الأعمال؛ وثانيًا، الغموض المفترض لفلسفة كانط التي تُدرَّس، سواء كان هذا الغموض متأصِّلًا أو سببه أسلوبه الخاص بشرح فلسفته وتوضيحها؛ وثالثًا، عدم شعبيّة كلّ الفلسفة التأمليَّة، بغضّ النظر عن كيفيّة التعامل معها

في بلد تؤثِّر فيه بنية المجتمع ونزوعه على أنشطة الأمة بأكملها بفعل تفضيل التوجُّه العمليِّ حصريًّا دون غيره.

مع ذلك، ومهما كانت الحظوظ المباشرة التي تتميَّز بها كتاباته، فكُلُّ من له بعض الفضول سينظر إلى المؤلِّف نفسه باهتمام عميق؛ وبالقياس إلى اختبار واحد للقوَّة -أعني عدد الكتب التي أُلِّفت مباشرةً لدعمه أو دحضه، دون الإشارة إلى تلك التي قام بتنقيحها بنفسه بشكل غير مباشر- فإنه لا يوجد فيلسوف على الإطلاق، باستثناء أرسطو، يستطيع الادعاء بأنه يضاهي كانط في مدى التأثير الذي مارسه على عقول البشر. بمثل هذه الادّعاءات الكفيلة بلفت انتباهنا، أكرِّر -من باب الاحترام العقلاني للقرَّاء- أنني أفترضُ اهتماما كبيرا بكانط، يسوِّغ صياغة هذه النبذة عن حياته[1].

* * *

وُلد إيمانويل كانط[2]، وهو الابن الثاني من ستة أطفال، في 22 من أبريل 1724، في كونغيسبرغ[3]، بمملكة بروسيا، وهي مدينة كانت

---

(1) تم جمع الورقة التالية عن أيام كانط الأخيرة من كتابات باللغة الألمانية لكل من واسيانسكي وجاشمان وبوروسكي وغيرهم. (د.ك.)

(2) تنحدر عائلة كانط، من جهة الأب، من أصول أسكتلندية؛ ومن هنا كان الاسم يُكتب عن طريق كانط الأب بصيغة: كانْت Cant، لكونه اسمًا أسكتلنديًا، وهو لا يزال موجودًا في أسكتلندا. لكن إيمانويل، على الرغم من أنه كان يعتز دائمًا بأصله الأسكتلندي، إلا أنه استبدل حرف K بحرف C، وكتب الاسم بصيغة Kant ليتماثل مع اللغة الألمانية بطريقة أفضل. (ن)

(3) كونيغسبرغ Königsberg: عاصمة بروسيا الشرقية سابقًا، أصبحت جزءا من روسيا بعد 1945 باسم كلينينغراد.

تضمُّ في ذلك الوقت حوالي خمسين ألف نسمة. كان والداه من ذوي المكانة المتواضعة، فلم يُعدَّا من الأغنياء ضمن طبقتهما الاجتماعية، ولكنهما كانا قادريْن على منح ابنهما إيمانويل ما يحتاجه من تعليم حر[1] (مع مساعدة ضئيلة من رجل نبيل من أقربائهما كان يحترمهما لما ميَّزهما من تقوى وفضائل عائلية). فأرسلاه إلى مدرسة خيريّة عندما كان طفلًا، ليلتحق فيما بعد، عام 1732، بالأكاديميَّة الملكيَّة، أو الفريدريكيَّة[2]، حيث درَسَ الكلاسيكيَّات اليونانية واللاتينية، وربطته علاقة وثيقة بأحد رفاق الدراسة، وهو ديفيد روهنكن[3] الذي صار في وقت لاحق معروفًا جدًا باسمه اللاتيني روهن كينيوس، وقد دامت علاقتهما حتى وفاة روهن.

في عام 1737 توفيت والدة كانط، وهي امرأة ذات شخصية فذَّة تميَّزت بسعة المعرفة وإنجازات عديدة تخطَّت بها طبقتها الاجتماعية، وقد ساهمت في ازدهار مستقبل ابنها من خلال إرشاد أفكاره الغضَّة، ومن خلال الأخلاق الرفيعة التي ربَّته عليها، وهو ما جعل كانط لا يتحدّث عنها في كلّ مرّة، إلّا وأبدى شعورًا بالحنين إليها واعترف بما عليه من التزامات عظيمة إزاء ما قدَّمته له من رعاية.

---

(1) التعليم الحر liberal education: يهتم بتوسيع المعارف والخبرات العقلية بدلاً من التدريب التقني والمهني.

(2) الأكاديمية الفريدريكيّة Fredericiam Academy: نسبة إلى فريدريك الثاني ملك بروسيا (1740-1786).

(3) ديفيد روهنكن David Ruhnken: (1723- 1798) ألماني من أصل هولندي، درس وعلّم الآداب الكلاسيكيات، من أعماله: معجم الكلمات الأفلاطونية، وعُرف باسم روهن كينيوس Ruhn-kenius.

في الفصل الأول من العام الدراسي[1] 1740 التحق كانط بجامعة كونيغسبرغ، وفي عام 1746، حين كان عمره يناهز اثنين وعشرين عامًا، طبعَ كتابه الأول، بناءً على سؤال رياضيٍّ من ناحية، وفلسفيٍّ من ناحية أخرى، يتعلَّق بـ «تثمين القوى الحيَّة»؛ وهو السؤال الذي كان لايبنتز[2] قد أثاره للمرة الأولى، في معارضة للديكارتيين[3]، ليستقرَّ أخيرًا لدى كانط، بعد أن شغل معظم علماء الرياضيات الكبار في أوروبا لأكثر من نصف قرن، وقد أُهدي هذا الكتاب إلى ملك بروسيا، لكنه لم يصل إليه أبدًا، لأنه ببساطة لم يُنشر[4]. ومنذ ذلك الوقت حتى عام 1770، عمل مُربيًا خاصًا لأبناء بعض العائلات، ومحاضرًا في كونيغسبرغ أمام رجال الجيش على وجه الخصوص، حول فن إقامة التحصينات العسكرية، ثم تمَّ تعيينه في عام 1770 ليتولى كرسي الرياضيات، ولكنه استبدله بعد فترة وجيزة بكرسي المنطق والميتافيزيقا، وقدَّم بهذه المناسبة درسًا افتتاحيًّا حول شكل ومبادئ العالم المعقول والمحسوس[5]، وكان درسه هذا ملفتًا لأنه تضمَّن

---

(1) في الأصل مايكلماس Michælmas: الفصل الأول من العام الدراسي (من سبتمبر حتى عيد الميلاد)، ويستمد اسمه من عيد القديس مايكل.

(2) غوتفريد لايبنتز Gottfried Leibnitz: (1646– 1716) فيلسوف وعالم طبيعيات ألماني.

(3) الديكارتيّون Cartesians: نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي ديكارت (1596– 1650).

(4) يجب أن نعزو إلى هذا الظرف الذي يعود إلى 1746 سبب عدم معرفة الكتاب سوى لدى قلة قليلة من الفلاسفة وعلماء الرياضيات في البلدان الأجنبية، وكذلك إلى حقيقة أن داليمبرت D'Alembert الذي كانت فلسفته أكثر بؤسًا من معرفته بالرياضيات، قد استمر بعد ذلك بسنوات عديدة في تمثيل النزاع باعتباره خلافًا لفظيًّا فقط. (د.ك.)

(5) باللاتينية في الأصل: De Mundi Sensibilis atque Intelligibilis Forma et

البذور الأولى لفلسفة التعالي[1]، وفي عام 1781 نشر عمله العظيم «نقد العقل المحض»[2]، وتوفي أخيرًا في 12 فبراير 1804.

هذه هي الحقب الأساسيّة لحياة كانط العظيمة، وقد كانت سيرته مميَّزة حقًّا لما تضمَّنته من نقاء ومن سموٍّ فلسفي في تفاصيلها اليوميّة؛ ويمكن الحصول على أفضل انطباع عن ذلك من رواية واسيانسكي عن سنواته الأخيرة التي قام كلٌّ من جاشمان، ورينك، وبوروسكي[3] وغيرهم من كتَّاب السِّيَر الذاتية بفحصها وتأييدها بشهادات إضافية. ومن خلالها، تظهر شخصيّة كانط القويّة، وهو يقاوم بؤس الملكات العقليّة المضمحلّة والألم والاكتئاب، ويصارع اهتياج نوعين مختلفين من المرض، أصاب أحدهما معدته والآخر رأسه، ليظلّ منتصرا على كلّ هذه المصاعب حتّى آخر لحظة في حياته، بفضل نبله وسعة عقله. لكن العيب الرئيس في جميع المذكرات عن كانط يكمن في أنها لا تورد

Principiis، وقد ترجمها وليام إيكوف W. J. Eckoff ونشرت في نيويورك عام 1894 بعنوان «أطروحة كانط الافتتاحية عام 1770».

(1) فلسفة التعالي أو الفلسفة المتعالية Transcendental Philosophy: تعنى باكتشاف الحقيقة من خلال القبليّات لا عن طريق التجربة، ولا تقف عند مصادر الإحساس بل تتجاوزها إلى إمكان المعرفة البديهية، وكان كانط أول من نادى بهذا التوجّه الفلسفي منتقدًا المذهب العقلي (ديكارت) والمذهب التجريبي الحسي (لوك وهيوم).

(2) يعتبر «نقد العقل المحض Critique of Pure Reason أو Critik der Reinen Vernunft أحد أكثر الأعمال تأثيرًا في تاريخ الفلسفة، ثم نشر كانط بعده «نقد العقل العملي» سنة 1788، و«نقد الحكم» سنة 1790.

(3) إريغوت واسيانسكي E. Wasianski (1755 -1831)، ورينولد جاشمان R. Jachmann (1767 -1843)، وفريدريك رينك F. Rink (1770 -1811)، ولودفيغ بوروسكي L. Borowski (1640 -1831) ثيولوجيّون بروسيون كتبوا سيرًا مختلفة عن كانط وكانوا تلاميذ له.

الكثير من أحاديثه وآرائه، ولعلّ هذا ما يجعل القارئ متذمّرًا منها ومعترضًا على أن الملاحظات على قلّتها، مقتضبة وظرفيَّة أو عرضيَّة، بل مبتذلة في بعض الأحيان، وقاسيةً في أحيان أخرى. أمَّا الاعتراض الأول، فيمكن الإجابة عنه بأنّ النميمة المتَّصلة بسيرته الذاتية والتدقيق بطريقة غير لائقة في حياته الخاصّة، هما أمران ليس من الأخلاقيّ أن يكونا مادّة للكتابة؛ لكن ربما أمكنتْ قراءته بغض النظر عن ذلك دون حرج، بل ببعض المشروعيّة أحيانًا، طالما أن الموضوع أساسًا رجلٌ عظيم مثله؛ وأمَّا في ما يتعلق بالاعتراض الثاني، فلا أعرف كيف أعذرُ السيد واسيانسكي وهو يجثو حذو سرير صديقه المحتضر لكي يدوِّن بدقةِ مراسلٍ وباختزال آخرَ خفقةٍ من نبضاته، وآخرَ مشهدٍ من صراع جسده وهو ينطفئ، إلاّ إذا افترضنا أنّ فكرة سامية قد هيمنت على عقله وعطّلت القيود الطبيعيّة الّتي من شأنها أن تكبّل الحسّ الإنسانيّ فيه، فكرة جوهرها أنّ كانط هو شخص ينتمي إلى كلّ العصور. وتحت تأثير هذا الانطباع، تحوّل الانفعال الكامن فيه إلى وعي بالواجب العام، وعي ما كان ليصمد لو أشرع الباب لنزوعه العاطفي الخاص.

أيام إيمانويل كانط الأخيرة

بدأت معرفتي بالبروفيسور كانط قبل فترة طويلة من الوقت الذي تشير إليه هذه المذكّرات. ذهبت عام 1773 أو 1774، لا أتذكَّر أيَّهما بالتحديد، للإصغاء إلى محاضراته، ثمّ صرت مستكتَبًا لديه، وكان من الطبيعي أن أصير في هذا المقام أوثقَ صلةً به من أي تلميذ آخر من تلاميذه؛ حتى أنه منحني، دون أي طلبٍ منِّي، امتيازًا عامًا بالحضور إلى مدرّجه مجانًا.

في 1780، أوقفتُ كل اتصال لي بالجامعة، ومع ذلك استمررت في الإقامة في كونيغسبرغ، دون أن يلاحظ كانط ذلك، أو لعلّه قد نسيني تمامًا، ولكنني التقيتُ به صدفةً بعد عشر سنوات (أي في 1790)، في حفل أقيم بمناسبة زواج أحد الأساتذة؛ وقد تحدَّث كانط حينذاك وألقى بعض الملاحظات عن اهتماماته بشكل عام، وفي نهاية الحفل، عندما تحلّق الحاضرون في مجموعات متفرّقة، أتى ليجلس إلى جانبي بكل لطف. كنتُ في ذلك الوقت أعمل بائعَ زهور هاويًا، أعني أنّ دافعي الرئيس لهذه المهنة هو شغفي بالزهور، وقد تحدَّث معي بمعرفة واسعة عن هذا العمل الأثير لديّ، وتفاجأتُ في

سياق حديثنا بمعرفة أنه كان على دراية تامة بجميع الظروف المعيشية التي أمرُّ بها، وذكَّرني بالرابطة السابقة التي جمعتنا، معربًا عن امتنانه بمعرفة مدى سعادتي بها؛ وكان من الرائع أنْ دعاني إلى الحضور لتناول العشاء معه من حين إلى آخر، كلّما كنت في حِلٍّ من مشاغلي؛ وبعد فترة وجيزة من هذا الحديث، نهضَ قصْدَ المغادرة، وبما أنّنا كنّا سنسلك الطريق نفسه، فقد اقترح عليَّ أن أرافقه إلى المنزل، وهذا ما حدث. ثم دعاني لزيارته في الأسبوع الموالي، وأن أواظب على زيارته أسبوعيًّا بعد ذلك، تاركًا لي حرّية تحديد اليوم الّذي يناسب جدول أعمالي.

لم أجد في البداية تفسيرًا واضحًا للأسلوب الّذي خصّني به كانط في المعاملة، فتوقَّعتُ أن أحد أصدقائي المقرّبين قد ذكرني بخير على مسمع منه، بما قد يرفع من شأني عنده أكثر ممّا أستحقّ، لكنّ علاقتي المتينة به كشفت لي في ما بعد، أنّه كان يستفسر دائمًا عن أحوال تلاميذه السابقين، وأنّ سعادة كبرى تغمره كلّما وصلته أخبار عن رخائهم ونجاحهم. وهو ما أثبت لي أنني كنتُ مخطئًا حين اعتقدت بأنّه قد نسيني.

تزامنَ إحياء علاقتي الوثيقة بالأستاذ كانط على نحو مناسب مع ما أجراه من تغيير كامل في ترتيباته الشخصية، فقد كان من عادته حتى هذه الفترة أن يتناول في أحد المطاعم وجبة ثابتة مع بعض التنويعات القليلة، لكنه صار يلازم بيته في ذلك الوقت، ويدعو صديقين كلَّ يوم لتناول الطعام معه، أو يقيم حفلًا صغيرًا من خمسة إلى ثمانية من أصدقائه، ويعود السبب في ذلك إلى كونه شديد الالتزام بقاعدة اللورد

تشيسترفيلد[1]، فلا يقلُّ عدد الذين يحضرون حفل العشاء، وهو من بينهم، عن عدد ربَّات النِّعَم[2]، ولا يتجاوز عدد ربَّات الإلهام[3].

كان هناك شيء غريب في الاقتصاد الكلِّي لما اتَّخَذَه كانط من تدابير منزلية، وخاصة حفلات العشاء، وهو يعارض بطريقة مسلِّية القيودَ التقليديَّة المعتادة في المجتمع، ومع ذلك، لم يكن ليهمل مظاهر اللياقة والذَّوق العام، كما يحدث أحيانًا في المنازل التي لا توجد فيها سيّدات يضفين مسحةً من الرِّقَّة على السلوكيَّات، وكان هذا الروتين الثابت كالآتي: في اللحظة التي يكون فيها العشاء جاهزًا، يتقدّم خادمه العجوز «لامب» نحو المكتب بخطى مدروسة، ويعلن ذلك، فيستجيب كانط بسرعة، ويتقدَّم ضيوفَه متحدِّثًا طوال المسافة إلى غرفة الطعام عن حالة الطقس[4]، وهو موضوع اعتاد أن يواصل الحديث عنه خلال الجزء الأوّل من العشاء، لأنّه لا يحبّذ الخوض في مواضيع جدّية مثل الأحداث السياسيّة الراهنة قبل العشاء، أو في مكتبه، على الإطلاق، وفي اللحظة التي يكون فيها كانط قد جلس على كرسيّه، وبسطَ منديله، يفتتح جلسة العشاء بصيغة معينة: «والآن، أيّها السادة!»،

(1) قاعدة اللورد تشيسترفيلد Lord Chesterfield's rule: يجب ألاّ يكون المدعوون أقل من عدد ربات النّعم (أي ثلاثة)، أو أكثر من عدد ربات الإلهام (أي تسعة).

(2) الحسناوات الثلاث The Graces: بنات زيوس، ربّات الجمال والبهجة والطرب في الميثولوجيا اليونانية.

(3) ربّات الإلهام Muses: الحوريّات التسع اللواتي يلهمن الفنون والعلوم في الميثولوجيا اليونانية.

(4) السبب في هذا هو اعتباره الطقسَ أحد القوى الأساسية المؤثرة في الصّحة، كما أنه كان بشكل عام حسّاسًا جدًا إزاء جميع تأثيرات العوامل الجوية. (ن)

وتعلن النَّبرة التي ينطق بها هذه الكلمات، بطريقة لا يمكن لأحد أن يخطئها، أنه قد بدأ الاسترخاء من أعباء الصباح، مستعدًّا للتخلّي عن انشغالاته ليستمتع بهذه الرّفقة الاجتماعية. كانت المائدة تنمّ عن كرم كبير، فالعشاء يتألّف من ثلاثة أطباق مختلفة ونبيذ، إضافة إلى طبق صغير، ويخدم كلّ شخص نفسه بنفسه. كما لم يكن ليَقبل على الإطلاق تأخير أيٍّ من مراسم حفل العشاء، حتّى أنّه نادرًا ما تردَّد في التعبير عن استيائه من أيّ شيء من هذا القبيل دون أن يغضب. ولكم كان يستاء أيضًا إذا أكل المدعوّون قليلًا، معتبرًا ذلك تصنُّعًا لا مبرّر له، بل يعتبر أنّ الضيف الأكثر لباقة هو من يبادر بتناول الطعام. أما دور كانط فغالبًا ما يتلو دور المبادِر ذاك. كان له عذرٌ خاصٌّ كي يبغض هذا التأخير، إذ هو يكدّ في العمل منذ ساعات الصباح المبكِّرة، دون أن يأكل شيئًا حتّى موعد العشاء، ومن ثمّ، فإنّه في الفترة الأخيرة من حياته كان بالكاد ينتظر وصولَ آخر المدعوّين (على الرغم من أنّ ذلك قد يكون جرّاء إحساسه بعدم الارتياح من بعض العادات، أو من التهيُّج الدوريِّ للمعدة، أكثر ممَّا هو بسبب الجوع الفعلي).

لم يكن هناك صديق من أصدقاء كانط إلَّا واعتبرَ اليومَ الذي يدعوه فيه لمشاركته العشاء يومًا ممتعًا. فهو لم يشأ أن يظهر يوما بصفته مرشِدًا، رغم أنّ تلك هي حقيقته فعليًّا. وكانت الضيافة مضمَّخة بدَفْقٍ من عقله المستنير الذي يسكبه بشكل طبيعيٍّ على كلِّ موضوع دون تكلُّف وكلّما سمحت بذلك فرصته للحديث؛ ويمضي الوقت بسرعة على نحو ممتع ومفيد من الساعة الواحدة إلى الرابعة، أو الخامسة، أو ربّما بعد ذلك. لم يكن كانط يتحمَّل «السكون»، وهو

الاسم الذي أطلقه على لحظات الصمت المؤقّت أو الفترات التي تَهْفِتُ فيها الحركة، وهو ما جعله يستنبط على الدوام بعض الوسائل لإعادة نبرة الحديث إلى الاسترسال، معتمدًا ببراعة على ما يستمدّه من الاهتمامات الخاصّة لضيوفه، أو من الاتّجاه الّذي يحدِّده لموضوع حديثه مهما كان، متأهّبًا على الدوام للتحدّث باهتمامِ متابعٍ متمكّنٍ، ولا بدّ أن الشؤون المحلّية في كونيغسبرغ كانت مدعاة للاهتمام فعلًا، قبل أن تستأثر بما تستحقّ من عناية على مائدته، ولكن ما قد يبدو أكثر تفرّدًا هو أنّه نادرًا، أو لم يسبق له مطلقا، أن حوّل وجهة الحوار نحو أيِّ فرع من فروع الفلسفة التي أسَّسها بنفسه. كان في الواقع مترفِّعًا تمامًا عن مثل هذا الخطأ الذي يرتكبه العديد من العلماء والأدباء، ومتسامحًا مع أولئك الّذين لم تؤهِّلهم اهتماماتهم لإبداء تعاطفهم مع أفكاره. كان أسلوبه في المحادثة بسيطًا وكلامه مفهومًا إلى أقصى حدٍّ ممكن وخاليا من المصطلحات الأكاديميّة، حتّى أن أيَّ شخص على بيّنة من أعماله ولا يعرفه شخصيًّا، سيجد صعوبة في تصديق عينيه حين يرى مؤلّف «فلسفة التسامي» ذا المعرفة العميقة في مثل هذه الجلسات المرحة يتحدَّث معه.

كانت موضوعات المحادثة على مائدة كانط مستمدةً أساسًا من الفلسفة الطبيعيّة والكيمياء وعلم الأرصاد الجوّية والتاريخ الطبيعي وقبل كلِّ ذلك من السياسة، أمّا الأحداث اليوميّة فلها حصّتها أيضًا من النقاش، كما ترد في الصحافة العامّة، وتُحَلَّلُ بدقّة وانتباه شديدين. كان يشكّك دون هوادة في أيِّ خبرٍ يعوزه ذكر التاريخ والمكان، مهما ظهر مقبولًا ومنطقيًّا، مع الإصرار على أنّه لا يستحق الإعادة والتكرار،

وهو ما يبيّن حرصه الشديد على كشف خبايا الأحداث السياسيّة، والسياسة السريَّة التي شكَّلت دافعًا لتلك الأحداث، فيشعرك بأنّه يتحدّث بسلطة شخص دبلوماسيٍّ بإمكانه الوصول إلى المصادر الخفيَّة للمعلومات، لا كمتفرِّج بسيط على المشاهد الكبرى التي كانت تعيش على وقعها أوروبا آنذاك. وفي أيّام الثورة الفرنسية، طرَحَ العديد من التخمينات حول ما كان يُعتَبر في ذلك الوقت، توقّعات متناقضة، ولا سيما في ما يتعلَّق بالعمليّات العسكريّة، وهو ما تحقَّق تمامًا حسب فرضيّاته البارزة التي اعتمد فيها على تحليل فجوة التزامن بين المرّيخ والمشتري في نظام الكواكب السيَّارة[1]، وقد تأكّد ذلك بشكل كامل عاش ليشهده في اكتشاف كويكب سيرس من قبل بيازي[2]، في باليرمو، واكتشاف كويكب بالاس من قبل د. أولبيرس[3]، في بريمن[4]؛ وبالمناسبة، فقد أثار هذان الاكتشافان إعجابه، ومهَّدا لموضوع كان يتحدّث عنه دائمًا بسرور، ولكنه مع اعتداله وتواضعه

(1) كان على المؤلف أن يضيف إلى هذا: «بالعودة إلى فجوة التزامن بين المريخ والمُشترى في نظام الكواكب السيّارة ونظام حركة المذنّبات»، وهو ما أشار إليه كانط قبل عدة سنوات من إثبات حدسه عن طريق تلسكوب الدكتور هيرشل Dr. Herschel حيث تم اكتشاف ڤيستا Vesta [كويكب تم اكتشافه عام 1807] ويونو Juno [كويكب اكتشف عام 1804]، كما تم تأكيد المزيد من تخمينات كانط في يونيو 1804، وهو الوقت الذي كتب فيه واسيانسكي عن كانط. (ن)

(2) جوزيبي بيازي Piazzi: (1746- 1826) عالم إيطالي اكتشف كويكب سيريس Ceres عام 1801.

(3) هاينرش أولبيرس Olbers: (1758- 1840) عالم فلك ألماني اكتشف كويكب بالاس Pallas عام 1802.

(4) بريمن Bremen: مدينة تقع في شمال غرب ألمانيا.

المعتاد، لم يتفوّه بكلمة واحدة عن مدى اطّلاعه على المعطيات المسبَقة التي تظهر أنّ مثل هذه الاكتشافات كانت محتمَلة قبل حدوثها بعدّة سنوات.

لم يأتِ تألّق كانط من كونه ضيفًا مبجَّلًا فحسب، بل كان مضيِّفًا دمثًا وسخيًّا تكفيه رؤية ضيوفه سعداء ومرحين، مستمتعين بالملذات العقلية والحسيَّة المتنوعة التي تتضمَّنها مأدبته الأفلاطونية. ودفعته رغبته في أنْ يضمّ المرح إلى التفنّن في إقامة حفلات العشاء، فاعتمد قاعدتين راقبَ تنفيذهما بدقّة، ويمكنني القول بكلّ ثقة، إنّهما كما يلي:

- أوّلا، يجب أن يكون المدعوّون متنوّعي التخصُّصات لِضمان قدر كافٍ من تنوّع المحادثة. ولذلك، كانت حفلاته كأنّها صورة مصغَّرة من مدينة كونيغسبرغ، تضمّ فئات متنوّعة من مختلف مشارب الحياة، كأصحاب المناصب والأساتذة والأطبّاء ورجال الدين والتجّار المستنيرين.

- ثانيًا، يحرص كانط على وجود عدد مناسب من الشبّان، يكونون غالبًا من صغار السنِّ ويتمّ اختيارهم من بين طلّاب الجامعة، لأنّهم يضفون على المحادثات طابعًا من المرح والدعابة اللذيْن تتميّز بهما الأرواح الشابّة، وكان ذلك دافعًا إضافيًّا، كما أعتقد، لكي يُبعد ذهنه بهذه الطريقة عن الحزن الذي خيَّم عليه بسبب الوفاة المبكّرة لبعض أصدقائه من الشباب الذين أحبَّهم.

يقودني هذا إلى الإشارة إلى سمة فريدة في الطريقة التي اتَّبعها كانط للتعبير عن تعاطفه مع أصدقائه أثناء المرض؛ فكلَّما كان خطر المرض

محدقًا بأحدهم، كان يصيبه جزعٌ واضطراب، فيقوم بالاستفسار عنه على الدوام، وينتظر انتهاء الأزمة بصبر، بل إنه لم يتمكَّن أحيانًا من مواصلة أعماله المعتادة بسبب ما كان يعتريه من انفعال ذهني، ولكن ما أن يتم إعلان وفاة المريض حتّى يستعيد رباطة جأشه، ويدخل في حالة من الهدوء الصارم كأنها لامبالاة وعدم اكتراث، وذلك لأنه يرى الحياة ضمن منظور عام، وبالتالي فإلى جانب ذلك الشيء المؤثِّر في الحياة، أي ما نسمِّيه «المرض»، بوصفه حالة دائمة من التقلُّب والتغيُّر الّتي تطرأ على الإنسان فتولّد مشاعر متأرجحة بين الأمل والخوف، يوجد تناسبٌ طبيعي يؤدي إلى تسويغ المرض أمام العقل. في حين أن الموت، باعتباره حالة دائمة نسلِّم بها دون اعتراض، يُنهي قلقنا كلّه، ويُبطل انفعالاتنا المستَثارة إلى الأبد، ولم يكن كانط يرتضي إدراج هذه الحالة، أي الموت، في أي من حالات الإحساس، بل اعتبرها واحدة من المظاهر الثابتة غير القابلة للتغيير.

لم يتمّ التصريح بكلّ هذه الجرأة الفلسفيّة سوى في مناسبة واحدة، إذ يتذكَّر العديد ما بدا على كانط من أسى بالغ بعد وفاة السيد «إهرنبوث» الذي كان يكنُّ له مشاعر ودٍّ كبيرة، وهو شاب قد تمتَّع بإدراك جيد للغاية وأحرز إنجازات كثيرة. وبطبيعة الحال -بالرغم من قاعدته المتحفِّظة قدر الإمكان في اختيار رفاقه الاجتماعيين من بين الشباب- حدثَ وأن رثى على امتداد حياته الطويلة عددًا من أصدقائه الذين شكَّل فقدانهم أثرا ثقيلا عليه وخسارة لم يمكنه تعويضها.

لنعد إلى شؤونه اليومية، فبعد انتهاء حفل العشاء مباشرة يكون كانط قد خرج للتنزّه، لكنه لا يأخذ معه أيًّا من رفاقه، ربّما لاعتقاده

أنّ الأصوب بالنسبة إليه هو متابعة تأمّلاته الفلسفيّة[1] بعد الكثير من الاسترخاء المَرِح والعاميِّ، وربّما كذلك لسبب آخر غريب جدًّا، كما تبيَّن لي، وهو رغبته في التنفّس عبر أنفه فحسب، وهذا ما لم يكن بإمكانه فعله إذا كان مضطرًّا باستمرار لفتح فمه أثناء الحديث، ويعود السبب في ذلك -أي ممارسة رياضة المشي- إلى أن الهواء الطلق الذي يجري في دائرة أكبر، ثمّ يصل إلى الرئتين وهو أقلّ رطوبةً، يكون أقلَّ قدرة على تهييجهما إذا ما كان في درجة حرارة أعلى إلى حدٍّ مّا. ومن خلال المثابرة الدائمة على هذه الممارسة الّتي كان يوصي بها أصدقاءه على الدوام، كثيرًا ما أثنى على نفسه بما اكتسبه من حصانة مستمرّة ضدَّ السعال ونزلات البرد وبحَّة الصوت وكلّ العلل الأخرى، والحقيقة هي أنّ هذه النوبات المزعجة قلَّما انتابته، بل إنّني من خلال تبنِّي قاعدته هذه بين حين وآخر، وجدتُ أن صدري قد صار أقلَّ عرضة للإصابة بمثل هذه الأمراض خلاف ما كان في السابق.

كان يجلس عند السادسة إلى مكتبه، وهو قطعة أثاث عاديّة غير مزخرفة، ويقرأ حتّى الغسق، وخلال هذه الفترة التي يغمرها ضوء متذبذب، كان من المألوف أن يستريح في هدوء متأمِّلًا ما قرأه، شريطة

---

(1) لقد أخطأ السيد واسيانسكي هنا أيضًا، فقد يكون كانط ميّالاً في مثل هذه الظروف لمواصلة تأملاته، لكنه لم يكن من النوع الذي يبرّر ذلك أو يُدرجه في قول مأثور عنه. كان يرفض أن يتناول الطعام وحده، وهو ما أطلق عليه solipsismus convictorii، للدلالة على عشاء الشخص بمفرده؛ ومن باب المبدأ، قد يكون المرء ميّالًا لأن يفكّر كثيرًا وعن كثب بعد تناول الطعام، وتلك ممارسة كان كانط يعتبرها ضارّة بالمعدة وخاصة في المرحلة الأولى من الهضم، وعلى نفس هذا المبدأ كان يعارض المشي أو ركوب الخيل وحده، أي القيام برياضة مزدوجة، عقليّة وجسدية في الوقت نفسه.

أن يكون الكتاب أهلًا لذلك فعلًا، وإلّا فإنّه يضع العناوين العريضة لمحاضرته في اليوم التالي، أو جزءًا مّا من أيِّ كتاب قد يشرع في تأليفه لاحقًا. كان يجلس حذو الموقد شتاءً أو صيفًا، وهو ينظر عبر النافذة إلى البرج القديم في لوبينيخت[1]، لا رغبة منه في رؤيته بوضوح، بل لأنّه يجد في انتصابه أمام ناظريه أمرًا غامضًا، أو ربّما يوحي له بشيء مّا. لا توجد كلمات قويّة بما يكفي للتعبير عن الرضا الّذي استمدّه من هذا البرج بينما كان ينظر إليه في وضعه ذاك مستغرقًا في أحلام اليقظة وقد انعكست عليه ظلال الشفق، وستتعرَّف في تتمَّة هذه الورقة على مدى أهمّية ذلك المنظر بالنسبة إلى راحته؛ ذلك أن بعض أشجار الحور الطويلة في الحديقة المجاورة استطالت وحجبت عنه مرأى البرج، ما جعله قلقًا ومنزعجًا، ووجد نفسه مع استمرار هذا الحال عاجزًا عن متابعة تأمُّلاته المسائيّة. ولحسن الحظّ، كان مالك الحديقة شخصًا محترمًا وخدومًا جدًّا، ويكنّ تقديرًا كبيرًا لكانط. ولمّا عُرضت عليه هذه المسألة أمَرَ بضرورة إزالة أشجار الحور، فتمَّ قطعها، وكُشف الستار عن برج لوبينيخت القديم، ليستعيد كانط اتِّزانه ويواصل تأمّلاته إبَّان الشفق كما كان يفعل سابقًا.

يتابع كانط دراساته في ضوء الشموع حتّى الساعة العاشرة، وقبل ربع ساعة من خلوده إلى النوم، يكون قد أراح عقله من الأفكار التي تتطلّب أيَّ قدر من الانتباه أو من الطاقة الذهنية، وذلك على مبدأ أنّ العقل إذا زادَ تعرُّضه للإثارة والتحفيز فإن مثل هذه الأفكار ستؤدّي

(1) لوبينيخت Lobenicht: حي في مدينة كونيغسبرغ في بروسيا السابقة.

به إلى الأرق، على أنّ أقلَّ تغيير في ميعاد نومه كان كفيلًا بإزعاجه إلى حدٍّ بعيد، وكان ذلك يمحى نادرا لحسن الحظّ. بعد ذلك ينزع كانط ثيابه دون مساعدة خادمه، ولكن في مثل هذه الحالة، ومع مثل هذا الاحترام الرومانيِّ للذوق الشخصي، كان في حالة تأهّب دائمة لأن يتصرّف في أيّ موقف طارئ، على نحوٍ لا يحرجه أو يحرج الآخرين. وهذا ما دأب على فعله: يستلقي على الفراش، ويتدثَّر بلحافه (لحاف قطني في الصيف، وصوفيّ في الخريف، أما في فصل الشتاء فكان يستعملهما معًا)، ويحمي نفسه ضد نزلات البرد الشديدة بلحاف محشوٍّ بالريش، إلّا في طرفه المبطَّن بطبقة من الصوف، الّذي كان يغطّي به منطقة كتفيه. لقد علَّمَتْه الممارسةُ الطويلة أسلوبًا حاذقًا جدًّا عندما يتلفّع باللحاف، إذ يجلس في البدء على جانبٍ من السرير، ثمّ يتقوَّس بحركة رشيقة ويدسُّ نفسه تدريجيًّا تحت الملاءة، ويسحب بعد ذلك طرف اللحاف تحت كتفه الأيسر، ويمرِّره أسفل ظهره، ثمّ يجذبه حوله ليستقرّ تحت كتفه اليُمنى؛ وأخيرًا، يسحب الطرف الآخر من اللحاف بنفس الطريقة، فيتدثَّر جسمه بالكامل. كان يتلفَّع هكذا، مثل المومياء، أو (كما اعتدت أن أخبره) «يغلّف نفسه ذاتيًّا مثل دودة الحرير في شرنقتها»، وينتظر النعاس الّذي يداهمه في أغلب الأحيان، على الفور. لقد كانت صحّة كانط رائعة حقًّا، إذ لم تكن مجرّد صحة سلبيَّة، أو لأنّ جسده لا يعاني أيّ ألم، وإنّما لأنّها حالة من الإحساس الإيجابي الممتع، والشعور الأليف بالسيطرة على نشاطه وحيويّته، لذلك كان أحيانا يحتلم عندما يلتحف في الليل بالطريقة التي وصفتها، أو كما اعتاد أن يخبرنا على العشاء:

«هل يمكنكم تصوُّر إنسان يتمتَّع بصحة مثاليَّة أكثر مني؟».

في الواقع، كانت حياة الرجل بريئة، إذ لم يعرف أي شغف مقلق يمكن أن يثير انفعاله أبدًا، ولا أيّ اهتمام خاصّ قد يسبِّب له الانزعاج، أو أيّ ألم قد يؤرِّقه؛ بل إنّ غرفة نومه كانت خاليةً من موقد حتّى في أكثر فصول الشتاء قسوةً، غير أنّه استسلم في سنواته الأخيرة لتوسُّلات أصدقائه كي يقوم بإضرام موقد صغير جدًّا. كما لم يكن لِيهتمّ بأيٍّ من أساليب التمريض أو العناية بالذات. وفي الواقع، تكفيه الدقائق الخمس الأولى، في أكثر الأجواء برودةً، لتدفئ السريرَ حرارةُ جسمه المتوهّجة دائمًا. وإذا عنَّ له أيُّ سبب لمغادرة غرفته في الليل (وكانت معتمة على الدوام ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً)، يمسك بحبل مربوط بسريره يقوده إلى خارج الغرفة.

لم يكن كانط يتعرَّق ليلًا أو نهارًا، وهو أمر مدهش خصوصًا عند معرفة أنّ درجة الحرارة في مكتبه تناهز خمسة وسبعين درجة فهرنهايت ثابتة لا تتغيَّر في هذه الغرفة الّتي قضّى فيها معظم وقته. وإذا ما انخفضت درجة واحدة، كان يعمل على رفعها بوسيلة مّا حتّى تصل إلى المستوى المعتاد، مهما كان الفصل الّذي هو فيه. أمّا في فصل الصيف، فيرتدي ملابس خفيفة وجوارب حريريّة. ومع ذلك، ولأنّ هذه الثياب لا يمكن أن تجنّبه التعرّق، خاصّةً عندما يمارس تمرينًا يتطلّب جهدًا، فقد استنبط على سبيل الاحتياط، حلًّا فريدًا لهذه المعضلة، وهو أنْ يستريح في مكان ظليل ويقف ساكنًا بلا حراك، كما لو أنّه شخص يتنصَّت أو في انتظار حدوث شيء مشوِّق، إلى أن يعود جسمه إلى ما كان عليه من جفاف معتاد. وإذا حدث أن

تلطّخت منامته بقطرةِ عَرَقٍ وحيدة، حتّى في أكثر ليالي الصيف قيظا، كان يتحدَّث عن ذلك بنبرة صارمة كما لو أنّ حادثًا مّا قد صعقه[1].

بهذه المناسبة، وبينما نوضِّح أفكار كانط عن الاقتصاد الحيوي[2]، قد يكون من الأفضل إضافة فكرة أخرى أكثر خصوصيَّة، فهو لم يكن يرتدي أيَّ شيء يحتوي على أربطة، خوفًا من أن يعرقل تدفّق الدم في جسده، غير أنّه وجد صعوبة في الحفاظ على جواربه دون ربطها، لذلك اخترع لنفسه بديلًا أكثر دقَّةً، وهو ما سأصفه الآن: في جيبيْن صغيريْن، كلٌّ منهما أصغر إلى حدٍّ مّا من جيب الساعة ويشغل المساحة نفسها على كلِّ فخذ، كان يضع صندوقيْن صغيريْن يكاد يماثل كلّ منهما علبة الساعة ولكنّه أصغر قليلًا، وفي كلّ صندوق يُدخل نابضَ ساعة يلتفُّ على ترس ويرتبط بسلكٍ مرنٍ، وذلك للتحكُّم بقوّة جذب الطرفيْن، وفي نهاية طرفيْ هذا السلك كان هناك خطّافان يمرَّان من فتحتيْن صغيرتيْن في جيبيْه ويرتبطان عن طريق طرفيْ السلك

---

(1) يبدو هذا الأمر أقل غرابة، مع الأخذ في الاعتبار وصف شخصية كانط الذي قدّمه رايكهارت Reichardt في الأصل، بعد ثماني سنوات من وفاته. يقول هذا الكاتب: «كان كانط أكثر جفافًا من الغبار سواء في الجسم أو في العقل. كانت قامته قصيرة، ولربما أكثر نحافةً، وجفافًا، من تشريح أي رجل عادي على وجه هذه الأرض. كان الجزء العلوي من وجهه كبيرًا؛ بجبين رفيع وهادئ، وأنف منحنٍ بأناقة، وعينين لامعتين وحادّتي البصر، ولكن الجزء السفلي عبّر بقوة عن حسيّة خشنة كانت تبرز في إدمانه المفرط على الأكل والشرب». وكما يبدو فإن الصفة الأخيرة من هذا الوصف قد تم التعبير عنها بفظاظة بالغة. (د.ك)

(2) تتمثل فكرة كانط الأساسية حول الاقتصاد الحيوي Animal Economy في الغاية الطبيعية من الكلّ المتعضّي كما يمثله الكائن الحي نسبةً إلى ثلاث علاقات: 1. نوعه العام، 2. فردانيته، 3. دوره الجزئي في العلاقتين السابقتين.

الذي يمرُّ على امتداد فخذيْه بأنشوطتيْن متّصلتيْن بجوربيْه. وكما هو متوقَّع، كان يتحكّم بهذا الجهاز المعقَّد مثل النظام البطلمي[1] للكون لجوربيْه ويحدّ من الاضطرابات العرضيَّة التّي يحدثها ربطهما بالطريقة المتداولة، ومع ذلك، فمن حسن حظّي أن ساهمتُ بعلاج بسيط لهذه الاضطرابات التي تزعج في بعض الأحيان راحة هذا الرجل العظيم وتعكِّر صفاء ذهنه.

عند الساعة الخامسة إلّا خمس دقائق، سواء في الشتاء أو في الصيف، كان خادم كانط، لامب الّذي أدَّى الخدمة العسكريّة في السابق، يسير إلى غرفة سيّده وقد تملّكه الشعور بأنّه يؤدّي واجبًا، ثمّ يصيح بنبرة عسكريّة عالية:

«السيّد الأستاذ، لقد حان الوقت».

كان كانط يستجيب دائمًا لهذا النداء دون أن يتأخَّر لحظة واحدة، مثل جنديّ ينفِّذ الأوامر، ولمْ يتوانَ أبدًا تحت أيّ ظرف من الظروف، حتّى لو كان حادثًا نادر الوقوع، كأن يستبدّ به الأرق ويحرمه من النوم طوال الليل. فعندما تدقُّ الساعة الخامسة يكون كانط قد جلس إلى مائدة الإفطار، ليشرب ما وصفه بكأس واحدة من الشاي، ولا شكّ في أنّه اعتقد ذلك، ولكنّه يملأ كأسه مرّات عديدة بما يجعله شرب في الحقيقة، كأسيْن أو ثلاثا أو أكثر، لرغبته في إبقاء الكأس دافئةً من جهة، ومحاولته أن يطيل وقت تناوله للشاي

(1) النظام البطلمي Ptolemaic system: نموذج للكون تكون فيه الأرض هي المركز وحوله تدور الشمس والكواكب والنجوم.

إلى أقصى حدٍّ كي يستغرق مليًّا في أحلام اليقظة من جهة أخرى. ثمّ، ولمرّة واحدة في اليوم، يدخّن بسرعة كبيرة، غليونًا من التبغ حتّى أنّه يُبقي بعض التبغ المتوهِّج دون أن يدخّنه، وخلال هذه العملية يكون قد فكَّر في الترتيبات الخاصّة بذلك اليوم، كما فعل في المساء السابق إبَّان حلول الشفق.

حوالي الساعة السابعة، يذهب عادةً إلى قاعة الدرس، ثم يعود إلى طاولة الكتابة، ولا ينهض من كرسيّه قبل ثلاثة أرباع الساعة من الواحدة بالضبط، حين ينادي الطبَّاخ بصوت عال:

«لقد دقَّت الساعة الواحدة إلّا ربع».

ومعنى هذا الاستدعاء هو الآتي: بعد تناول الحساء مباشرة، كان من عادته الثابتة أن يزدرد ما سمّاه «الجرعة» وهي تتكوّن إمّا من النبيذ الهنغاري، أو من نبيذ الراين، أو من الشراب المنكَّه المنعش، أو من شراب البيشوب الحار، إذ يُحضِر الطبَّاخ قارورةً من بين هذه الأصناف مع موعد دقَّات الساعة الواحدة، فيهرع بها كانط معه إلى غرفة الطعام، ويسكب كأسًا ولكنّه يتركها جانبًا بعد أن يغطّيها بورقة كي لا تفقد شيئًا من مذاقها، ثمّ يعود إلى مكتبه، في انتظار وصول ضيوفه الّذين كان يستقبلهم حتّى آخر فترة من حياته وقد ارتدوا بدلات كاملة تليق بالمأدبة.

هكذا نأتي مرّة أخرى إلى موعد العشاء، وقد تكوَّنت الآنَ صورةٌ دقيقة لدى القارئ عن مسار اليوم العادي بالنسبة إلى كانط. وهذا الروتين الصارم لم يكن يزعجه أبدًا، بل لعلّه ساهم في إطالة عمره،

كما ساهم فيها توحيد نظامه الغذائي وغيره من العادات الأخرى التي دأب عليها. وما دمنا بهذا الصدد، فإنّه كان ينظر بالفعل إلى صحّته وشيخوخته كنتيجة تولَّدت إلى حدٍّ كبير عن مثابرته وما بذله من مجهودات، كما تحدَّث عن نفسه في كثير من الأحيان بوصفه شخصًا رياضيًّا استمرّ لمدة ثمانين سنة تقريبًا في دعم توازنه على حبل الحياة المرتخي، دون أن ينحرف يمينًا أو يسارًا. وعلى الرغم من كلّ الأمراض التي عرَّضته لها ميوله ونزعاته الصحيَّة، فقد حافظ على وضعه في الحياة كما أراد. ومع ذلك، كان يقول مازحًا في بعض الأحيان إنّه من السُّخف حقًّا، بل هو نوع من الإذلال، بالنسبة إلى الجيل القادم، أن يعمِّر الإنسان ويعيش عمرًا مديدًا، لأنّه يكون بذلك قد اعتدى على المُمْكنات المتاحة للشباب الأصغر سنًّا.

هذه الملاحظة المثيرة للقلق وفقًا للاعتبارات الصحّية الّتي اتَّبعها، وهي ملاحظة كان يربطها باهتمام كبير، بجميع الاكتشافات الجديدة في عالم الطبّ، أو بالطرق الجديدة الّتي أعادت التنظير والتفكير في الأساليب القديمة -باعتبار ذلك عملًا مدهشًا في الحالتيْن- جعلته يخصِّص قيمة أعلى لنظرية الطبيب الأسكتلندي براون[1] أو (كما يطلق عليها عادةً باشتقاق اسمها اللاتيني من اسم مؤلفها) النظرية البراونيَّة Brunonian التي سرعان ما تبنَّاها ويكارد[2] ونشرها في

(1) جون براون (1735- 1788) John Brown: طبيب أسكتلندي ابتكر الطريقة البراونيّة Brunonian في الطب.

(2) آدم ويكارد (1724- 1803) Adam Weikard: طبيب ألماني روسي.

ألمانيا[1]، ثمّ تعرَّف عليها كانط ورأى أنهّا ليست مجرّد خطوة عظيمة في الطبّ فحسب، بل هي كذلك حتّى بالنسبة إلى الغايات الإنسانيّة العامّة، وهُيِّئ له أنّه يرى في ذلك شيئًا مناظرًا لدورة الطبيعة البشريّة في إنجاز تطلُّعات أكثر أهميّة، وهي قبل كلّ شيء، صعودٌ مستمرٌّ نحو تعقيد متزايدٍ أكثر فأكثر، تعقبها عودة إلى الوراء، على آثار الخطوات السابقة، نحو البسيط والأوَّلي. وقد تركت مقالات د. بيدوس[2]، عن علاج السُّلّ الرئوي، وطريقة د. رايخ[3] لعلاج الحمَّى، انطباعًا قويًّا لديه، لكن هذه الطرق المبتكرة (وخاصة الأخيرة) لم تحرز ثقة أحد وفقدت أهمّيتها، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى اكتشاف د. جينر[4] للقاح، فقد كان أقلّ استبشارًا به، واستنتج عواقب وخيمة تنتج عن استنشاق الإنسان للأبخرة العفنة وتغلغلها في دمه، أو في الأنسجة الليمفاويّة على الأقلّ، وعلى أيِّ حالٍ فقد كان يعتقد، كضمان ضدَّ عدوى الجدري، أنها تتطلَّب فترة اختبار أطول. ولكن جميع هذه الآراء لا أساس لها، مع أنّه كان من الممتع جدًّا الاستماع إلى الجدل الثريّ حولها وإلى الحجج الّتي رُتِّبت لدعمها. ومن الموضوعات الّتي أولاها اهتمامه

(1) تم تعديل هذه النظرية بعد ذلك في ألمانيا بشكل كبير، وإذا حكمنا عليها بطريقة عشوائية فأنا أعتقد أنها ما زالت تحتفظ بالكثير من الأهمية في ذلك البلد (د.ك).

(2) توماس بيدوس Thomas Beddoes (1760 - 1808): طبيب وكاتب بريطاني خصّص جزءا من مجهوداته لعلاج السل.

(3) غوتفريد رايخ Gottfried Christian Reich (1769- 1848): طبيب ألماني.

(4) إدوارد جينر Edward Jenner (1749- 1823): طبيب إنجليزي، مكتشف لقاح الجدري.

في الفترة الأخيرة من حياته، نظريّة أو ظاهرة الغلفانية[1] الّتي لم يتقنها بشكل مُرْضٍ على أيِّ حال، فكتاب أوغسطين حول هذا الموضوع هو آخر ما قرأه تقريبًا، ومازالت لديَّ نسخته من هذا الكتاب الّتي تحتوي هوامش من تساؤلات واقتراحات كان قد دوَّنها بقلم الرصاص.

بدأت علامات الشيخوخة تبدو على كانط، وتفضح نفسها بأكثر من شكل، ومع أنّ ذاكرة كانط الاستثنائية قد خزّنت جميع ما يمتّ بصلة للمسائل الفكريّة والثقافيّة، إلّا أنّه كان يعاني منذ الشباب من ضعف غير عاديٍّ في هذه الملَكة الذهنيّة إذا تعلَّق الأمر بالشؤون العامّة للحياة اليوميّة. وقد تجلّت هذه الحالة منذ مرحلة الطفولة الأولى في أعراض قليلة عُرِف بها، لكن مع دخوله طفولتَه الثانية، تفاقم هذا العجز بطريقة واضحة ومؤثّرة جدًّا، ومن علاماته الأولى أنّه طفق يكرِّر القصص نفسها أكثر من مرّة في اليوم الواحد. وكان التردِّي الذي عانت منه ذاكرته ملموسًا جدًّا حتّى أنّه صار ينسى ما قاله هو نفسه، ولكي يحتاط ضدَّ ذلك، ويؤمِّن نفسه من كلّ ما من شأنه أن يُشعِر ضيوفه بالضجر، بدأ بكتابة بعض الخطوط العريضة، أو قائمة بالمواضيع التي يودُّ التطرُّق إليها في محادثة كلّ يوم، على بعض البطاقات أو على أغلفة الرسائل أو أيِّ قُصاصة ورقيّة غير مهمّة، لكنّ هذه المذكِّرات تراكمت عليه بسرعة، وكان من السهل فقدانها، أو لم تكن معدَّة كما ينبغي في اللحظة الّتي يحتاج إليها فيها، حتّى أنّني أقنعته بأن يستبدل ذلك بسجلٍّ فارغ قمت بإعداده، ولا يزال يحتفظ

(1) الغلفانية galvanism: العلاج باستخدام التيار الكهربائي.

ببعض المذكرات الدالَّة على وهن قواه العقليّة حتّى الآن. وكما يحدث غالبًا، في مثل هذه الحالات، فقد كانت لديه ذاكرة مثاليّة في ما يتعلّق بالأحداث البعيدة من حياته، الأحداث الّتي يمكنه تكرارها باستعداد كبير ودون أن يجد عائقًا في ذلك، وخاصّة بعض المقاطع الطويلة جدًّا من القصائد الألمانيّة أو اللاتينيّة، مثل الإنيادة، بينما تتلاشى الكلمات نفسها الّتي نطق بها للتوِّ دون أن يتذكَّر منها شيئًا. لقد عادَ الماضي جليًّا وحَيًّا تمامًا كأنّه يوجد الآن، أمّا الحاضر فقد تلاشى بعيدًا في مدًى غامض لا نهاية له.

من العلامات الأخرى على تردِّي كانط الذهني في هذه المرحلة من عمره ما أصابه من وهن خصَّص له بعد ذلك واحدة من نظرياته، فقد علَّل كل شيء عن طريق الكهرباء، وكانت ڤيينا وبازل وكوبنهاغن وأماكن أخرى في ذلك الوقت قد شهدت حالة من الموت الغريب بين القطط، ولأن القطط «حيوانات كهربائيّة» دون شكّ، فقد عزا بالطبع هذا الوباء إلى الكهرباء، كما أقنع نفسه في تلك الفترة بأن تكوينًا غريبًا من الغيوم قد ساد في الأجواء، واعتمد هذا دليلًا إضافيًا على فرضيّته الكهربائيّة. وبالإضافة إلى ذلك فقد فسَّر حالات الصداع التي تنتابه على الدوام بالمبدأ نفسه، بينما هي بجميع الاحتمالات مجرّد أثر بعيد من آثار الشيخوخة، ودليل مباشر على العجز[1] عن التفكير على نحو

(1) يخطئ السيد واسيانسكي تمامًا بشأن ذلك، فإذا كانت العوائق التي وضعتها الطبيعة أمام فعالية التفكير تزداد (أو أن نزعة التفكير -كما يسميها- تتضاءل) فإن القوة والعادة تتغيران على نحو متناسب، دون أن توجد حالة متولّدة عن اختلال التوازن الذي يناسب نوبات الصدّاع. لكن الحقيقة هي أنه إذا كان يدرك جيدًا كتابات كانط،

طبيعي وبالقدر نفسه كما كان في السابق. وكان هذا مفهومًا بالنسبة إلى أصدقائه الذين تجنَّبوا إخافته، فكما هو الأمر في ما يتعلّق بانتشار ظاهرة جويَّة على امتداد دورة طبيعيّة لعدّة سنوات (وهو ما يتعلّق على الأرجح بالاتّجاه العامّ للقوّة الكهربائيّة) فإنّ التجدُّد بدخول دورة أخرى كان من الممكن أن ينعشه ويريحه. لقد كان الوهم الّذي يبعث على الشعور بالأمل هو أفضل ما يمكن أن يحدث فعليًّا كعلاج له، غير أن رجلًا عوفي في مثل هذه الظروف من أوهامه (ومعظمهم تمَّ شفاؤهم خطأً)[1] ربّما أقدم على الصراخ: «لقد قتلتموني يا أصدقائي»[2].

ربّما يفترض القارئ أنّ كانط كان مدفوعًا بما أصاب خيلاءه وكبرياءه من وهن، أو بعدم إرادته مواجهةَ الحقيقة الفعليّة بأنّ مقدرته كانت تتضاءل فعلًا، حين أرجع تردِّي مقدرته الذهنيَّة إلى حالة الطقس، لكن المسألة ليست على هذا النحو، لأنّه في الحقيقة مدرك تمامًا لحالته الخاصّة، وقد قال بحلول عام 1799، لعدد من أصدقائه كنت من ضمنهم:

«أيّها السادة، أنا عجوز، ضعيف ومتصابٍ، ويجب عليكم أن تعاملوني كطفل».

لربّما ظنَّ أحدٌ أنّ كانط قد تملكّه شعور بالصِغَر، جرّاء رهبة التفكير في الموت الّذي قد يحدث في أيّ لحظة، مثلَ سُباهِ السَّكتة

كما هو الحال مع معرفته بشخصه، لكان قد عرف أنه كان يشتكي من بعض الانفعالات التشنجية المنبعثة عن الرأس قبل أن يشكّ أحد في تردّي مقدرته الذهنية. (د.ك)

(1) باللاتينية في الأصل: «cui demptus per vim mentis gratissimus error».

(2) باللاتينية في الأصل: «Pol, me occidistis, amici».

الدماغية الذي تنذر به آلام الرأس. لكن المسألة ليست كذلك أيضًا، فقد عاش في ذلك الوقت حالة استسلام دائمة، مُستعدًّا لقبول أيّ شيء من تدابير العناية الإلهية، وكلّ من سمعه في عديد المناسبات يتحدَّث عن موته، كان يشهد نبرة جديَّة صادقة ميَّزت أسلوبه وكلماته، ومن ذلك ما صرّح لضيوفه ذات يوم:

«أيّها السادة، أنا لا أخشى الموت، أؤكّد لكم، ولو أنّني أدركتُ فجأةً في هذه الليلة أنّني على وشك أن أُستدعَى، لكنتُ رفعتُ يديَّ إلى السماء، وقلت: مبارك هو الله! إذا كان من الممكن حقًّا أن يصل مثل هذا الهمس. لقد عشت ثمانين سنة، ففي أيّ وقت ألحقتُ الأذى بالناس... أليست المسألة على خلاف ذلك!».

ثمّة علامة ثالثة على تدهور ملكاته الذهنيّة، وهي فقدانه كلَّ إحساس دقيق بالوقت، فأقلُّ من دقيقة واحدة، من دون مبالغة، تصبح في إدراكه للأشياء المحيطة به مدَّةً زمنية طويلة تبعث على الضَّجر، ويمكنني أن أعطي على ذلك مثالًا مدهشًا كان يتكرَّر باستمرار؛ ففي بداية السنة الأخيرة من حياته، اعتاد على تناول فنجان من القهوة مباشرةً بعد العشاء، وخاصّة في تلك الأيّام الّتي كنتُ فيها من بين مرافقيه، ولطالما اهتمّ بهذه المتعة الصغيرة، حتّى أنّه دوَّنها فيّ سجلِّ الأوراق البيضاء الّذي أعطيته إيّاه. كنتُ أتناول معه العشاء ذات يوم، على أن نحتسي القهوة في الختام، ويحدث في بعض الأحيان أن يحمله الحديث على الذهاب إلى الماضي كلّما شدَّه الحنين إليه، ولم أكن آسف أبدًا على الإصغاء إليه، بقدر ما كنتُ أخشى تلك القهوة الّتي

لم يعتد عليها أبدًا[1]، لأنهّا قد تصيبه بالأرق وتقضّ مضجعه ليلاً، أما إذا لم يحدث هذا ويسترسل في الحديث، فإنّه يكون قد بدأ مشهدًا مثيرًا للاهتمام، إذ يجب إحضار القهوة «فورا» (وهي كلمة كان يستعملها باستمرار في أيّامه الأخيرة)، ويبدي بنفاد صبر -على الرغم من أنّه لم يزل لطيفًا دمثًا كما عهدته- بعضَ التعابير المفعمة بالحيويّة والمليئة بالكثير من السذاجة الطفوليّة إلى درجة أن لا أحد منّا كان يستطيع منع نفسه من الابتسام، ولأنني أعرف ما يمكن أن يحدث، فقد كنتُ أحرص على أن تكون جميع الترتيبات مهيَّأة مسبقًا: يكون البنّ مُعدًّا، والماء يغلي، وفي اللحظة ذاتها الّتي يأمر فيها بالقهوة «فورا»، ينطلق خادمه كأنّه سهم، ليضع القهوة في الإبريق، ولا يتبقّى بعد ذلك سوى الوقت الكافي لتفور، لكنّ هذا التأخير العبثي كان يبدو أمرًا لا يُطاق بالنسبة إلى كانط، فنواسيه حينئذ بعبارات تختلف صيغها بقدر ما نستطيع، ولم يكن يتردَّد في الإجابة، فإذا قيل:

«عزيزي البروفيسور، ستكون القهوة هنا فورا».

كان يجيب:

«سوف تكون! ولكن هنا تكمن المسألة، بوركَ الإنسان، لا يجب إلَّا أن يكون كذلك».

---

(1) كيف حدث أن أصبح الأمر على هذا النحو في ألمانيا؟ السيد واسيانسكي لم يوضّح ذلك، وربما كان التجّار الإنجليز في كونيغسبرغ باعتبارهم من أقدم أصدقاء كانط وأكثرهم قربًا له، قد عرّفوه على عادة شرب الشاي، وعلى عادات إنجليزية أخرى، وعلى كل حال فإن جاشمان يخبرنا أن كانط كان مولعًا بتناول القهوة بشكل مفرط لكنه أجبر نفسه على الإقلاع عنها بسبب فكرة أنها مضرة بالصحّة. (د.ك)

وإذا صاح شخص آخر:

مكتبة
t.me/t_pdf

«القهوة آتية على الفور».

كان يردّ:

«نعم، وكذلك تأتي الساعةُ التالية. وبالمناسبة، هذا تقريبًا هو الوقت الذي انتظرته حتى الآن».

ثمّ يتمالك نفسه بصبر، ويقول:

«حسنًا، قد يموت المرء بعد كلّ شيء، ليس هناك سوى الموت، أمّا في العالم الآخر، فالشكر لله! نحن لن نشرب القهوة، ولا حاجة بالتالي إلى انتظارها».

وكان في بعض الأحيان ينهض من كرسيّه، ليفتح الباب ويصرخ بشكوى واهنة:

«القهوة! القهوة!».

فإذا سمع وقع خطوات الخادم على الدرج، استدار نحونا، ونادى بفرح مثل بحّار من على قمّة الصاري:

«اليابسة، الأرض! أصدقائي الأعزّاء، إنّني أرى الأرض».

هذا التردّي العام في قوى كانط، النَّشطة والسَّلبية معًا، أدَّى تدريجيًّا إلى ثورة في عاداته اليوميّة؛ فقد كان يذهب إلى النوم، كما سبق أن ذكرت، في الساعة العاشرة، ويصحو قبل الخامسة بقليل. وبقدر ما حافظ على موعد الاستيقاظ صار، في 1802، ينام مبكِّرًا منذ التاسعة، ثمّ أبكر من ذلك في السنوات التالية، وقد وجد نفسه أكثر

انتعاشًا بساعات النوم المضافة تلك، حتّى أنّه كان يرغب في البداية أن يهتف «أوريكا»[1]، كما هو الحال أثناء اكتشاف عظيم لفنٍّ من فنون استعادة الطبيعة المنهَكة، ولكنّه بعد التفكير فيه مليًّا، لم يعد يعتبره نجاحًا يستجيب لتوقُّعاته، ثمّ أصبحت الجولات الّتي يقوم بها مشيًا على قدميْه تقتصر بعد ذلك على عدد قليل من المنعطفات في حدائق الملك[2] غير البعيدة عن منزله. وكان قد تبنَّى طريقة غريبة يخطو بها لتبدو مشيته أكثر حزمًا، فكان يطأ الأرض بقدمه، ليس إلى الأمام، وإنما بشكل عمودي غير مباشر، فيدوس بباطن قدمه في آن واحد بما يسمح لها بتأمين موطئ أكبر وأكثر ثباتًا. وعلى الرغم من هذا الاحتياط فقد تعثَّر ووقع ذات مرّة في الشارع، ولم يقدر على النهوض بنفسه، فهرعت سيّدتان شابّتان، شاهدتا ما حدث، لمساعدته، وشكرهما برقَّة سلوكه المعتادة ممتنًّا لهما، وقدَّم لإحداهما وردةً يحملها في يده. لم يكن كانط يعرف هذه السيّدة شخصيًا، ولكنّها كانت سعيدة للغاية بهديّته الصغيرة، ومازالت تحتفظ بهذه الوردة كتذكار هشٍّ للقائها العابر بالفيلسوف العظيم.

وحسب اعتقادي، انجرّ عن هذا الحادث قرار بهجر رياضة المشي كليًّا، كما صار يؤدِّي جميع الأعمال ببطء وإجهاد واضحيْن، بما في ذلك القراءة، أمّا الأعمال التي تقتضي منه أيَّ جهد بدنيّ فقد صارت ترهقه تمامًا. ويومًا بعد يوم لم تعد قدماه تؤدّيان عملهما، فصار يتهاوى

(1) أوريكا Eureka: نداء يوناني اشتُهر عن أرخميدس، ويعني «وجدتها».
(2) «حدائق الملك» من حدائق مدينة كونيغسبرغ التي يعني اسمها «جبل الملك».

باستمرار سواءً كان يتحرّك في الغرفة، أو حتّى واقفًا. ومع هذا نادرًا ما اشتكى من ذلك أو أظهر للآخرين وهنه، بل كان يضحك باستمرار ممّا يحدث له، مؤكّدًا أنّه من المستحيل عليه إيذاء نفسه، بسبب خفّة جسده الّذي صار في تلك الفترة أشبه بهيكل عظميّ. ولكنّه في كثير من الأحيان، خاصّةً في الصباح، صار يغفو على كرسيّه بسبب ما يشعر به من إرهاق بالغ، ويسقط في هذه الأثناء على الأرض، غير قادر على النهوض، إلّا إذا سمع أحد خدمه أو أصدقائه صوت الارتطام فيسرع إلى الغرفة، لكنّ حالات السقوط هذه تمَّ تداركها باستبدال كرسيه بآخر ذي دعامات دائريّة تلتقي في المقدمة وتتشابك.

وقد عرّضته حالات النعاس الّتي تصيبه في غير أوانها لخطر آخر، إذ كان يسقط مرارًا وتكرارًا بينما هو يقرأ، فيقع رأسه على الشموع، وسرعان ما تشتعل قلنسوّته القطنيَّة الّتي يرتديها، ويوشك رأسه على الاحتراق، لكنّه يتصرّف بحكمة وهدوء في كلّ مرّة، فيمسك قلنسوتّه المحترِقة متجاهلًا ما سبّبته له النار من ألم، وينزعها عن رأسه، ثمّ يضعها بهدوء على الأرض، ويطفئ النار بقدميه. ومع ذلك، شعرت بأنّ خطرًا وشيكا يتهدّده بعد الحادث الأخير، إذ كادت ألسنة اللّهب أن تندلع في ثوبه الفضفاض الّذي كان على غاية القرب منها، فقمتُ بتعديل الطريقة الّتي يرتدي بها القلنسوّة، وأقنعته بترتيب الشموع بشكل مختلف، ثمّ وضعتُ دورق ماء ليبقى على الدوام إلى جانبه، وبهذه الطريقة جنّبته خطرًا قد يودي به إلى الهلاك.

من عبارات نفاد الصبر التي وصفتُها عند الحديث عن القهوة،

كان هناك ما يدعو للخوف من أن تغلب طباع التعنّت والعناد على شخصيّة كانط، خصوصًا مع ظهور مزيد من أعراض الشيخوخة عليه. وبناءً عليه، لمصلحتي ومصلحته بالطبع، اتّخذتُ قاعدةً سأتّبعها ما دمتُ في منزله، وهي ألّا أسمح لنفسي في أيّ مناسبة بأن يمنعني احترامي له من الإدلاء برأيي مهما بلغت صرامته طالما أنّ الموضوع يتعلّق بصحته، وألّا أقبل بتعنّته، خاصّةً في الحالات الحرجة، بل أن أصرَّ لا على وجهة نظري فحسب، وإنّما على اتّخاذ الإجراءات العمليّة اللازمة، أو إنّني سأغادره على الفور وأتركه وحيدًا إذا أبدى أيّ اعتراض، فلا أكون مسؤولًا بعد ذلك عن راحة شخص لا أستطيع التأثير فيه. وقد نال هذا السلوك الّذي التزمتُ به ثقة كانط، إذ لم يكن هناك شيء يزعجه أكثر من التزلُّف والتملُّق؛ ومع ازدياد ما ارتكبَه من حماقات صار أكثر عرضة للأوهام الذهنيّة بشكل يوميّ، ووقع على الأخصّ فريسة للعديد من الأفكار الخياليّة حول سلوك خدم المنزل، فصار، نتيجة لذلك، حادَّ الطباع معهم وعاملهم بطريقة مزعجة.

في مثل هذه المواقف، كنت ألزم الصّمت التامّ، لكن حين يطلب رأيي أحيانًا، لا أتردّد في إجابته بقولي:

«بصراحة يا أستاذ، أعتقد أنّك مخطئ».

فيسألني بهدوء: «أتعتقد ذلك؟».

ثمّ يستفسرني في الآن ذاته، عن وجهة نظري، وينصت لها بصبر كبير وانفتاح على تقبُّل الآراء الّتي تخالفه. وبالفعل، كان من الواضح أنّه قد استسلم أمام أقسى معارضة واجهها، ما دامت قد ارتكزت على

أسس ومبادئ محدَّدة وقابلة للجدل، في حين كان النبل الخاصّ الّذي ميَّز شخصيّته لا يزال يدفعه إلى ازدراءٍ اعتادَ عليه أثناء التسليم بآرائه ولو على نحو جزئي، حتّى عندما تجعله مظاهر الوهن الّتي تنتابه أكثر قلقًا وتوتُّرًا بسبب ذلك.

ففي وقت سابق من حياته، كان كانط قد اعتاد استخدام التناقض، ففهمُه الرائع وتألُّقه في الحديث نتجَا عن حضور بديهته الدائم وظرافته اللاذعة في بعض الأحيان، وفي جزء آخر عن سلطته المعرفية المذهلة (مزيجٌ من ثقة في النفس نبيلة أثَّر فيها الوعي بهذه المزايا في أخلاقياته، ومن معرفة عامّة ببراءةٍ متزمِّتة تَسِمُ أطوار حياته) منحه ذلك مكانة متفوّقة على الآخرين، أنقذته من الوقوع في أي شكل من أشكال التناقض الصريح. فإذا حدث في بعض الأحيان أن واجه معارضة صاخبة أو متطرِّفة، تدعمها أشكال من ادّعاء الظرافة، فإنّه عادةً ما كان ينسحب بكرامة من هذا النوع من المهاترة غير المجدية، ملهما الجميع أن مثل هذا المنعطف من المحادثة قد حقَّق مصلحة عامّة لهم، ويكون إذَّاك معجبًا في صمت، أو في تواضع على الأقلّ، بأكثر المنازعين جرأةً. أمّا بالنسبة إلى شخص قليل الإلمام بالتعارض والتّضاد، فمن المُستبعَد، أن يستجيب له كانط، بل لا يكلّف نفسه عناء مناقشته، ولا يشعره ذلك بالأسف، خصوصًا حين يحاول هذا الشخص إقناعه بالتخلّي عن عادة من عاداته اليوميّة بشكلٍ نهائيّ. ولذلك، لم يكن بإمكاني الاعتراض على أيٍّ من عاداته، مهما ذهبتْ بي الظنون إلى أنّها ضارَّة بصحّته، لكنّه غالبًا ما كان يتخلَّى عنها. كما أنّه اتَّبع عرفًا ممتازا في مثل هذه الحالات، وهو إمّا أن يقرِّر الالتزام برأيه على نحو حاسم،

أو يصرِّح بأنّه سيتّبع رأي صديقه، ثمّ يتبعه بصدق، دون أن يدَّعي ذلك ظاهريًّا فحسب أو يحاول تجربته على نحو غير جادّ. لكن أي خطَّة أخرى، مهما كانت تافهةً، يكون قد وافق على تبنِّيها بناء على اقتراح من شخص آخر، لم تكن لتُعارَض أو تُنقَض بعد ذلك أو يُسمح باستبدالها بسبب تدخُّله غير المناسب بما عُرف عنه من دعابات وظرافة. وهكذا، فإنه عانى في هذه الفترة ممَّا أصابه من تردٍّ ذهنيٍّ وجسديٍّ قضى على العديد من ملامح شخصيّته المرحة، وسماته اللطيفة والنبيلة، ولكن خلالها، كانت مودّتي تجاهه وتقديري له، يعظمان مع مرور الأيّام.

بما أنّني قد أشرتُ إلى خدمه، سأغتنم الفرصة هنا لأعطي بعض المعلومات عن خادمه الشخصي «لامب»، وكان من سوء حظّ كانط، في شيخوخته وما أصابه من وهن، أنَّ هذا الرجل صار مسنًّا أيضًا، وخضع بدوره لنوع مختلف من مظاهر الوهن. لقد خدم لامب في الأصل في الجيش البروسي، وما أن استقال حتّى دخل في خدمة كانط، وعاش على هذا النحو قرابة أربعين عامًا، وعلى الرغم من أنّه كان دائمًا شخصًا مملًّا وغبيًّا، إلّا أنّه اضطلع في بداية هذه الفترة بواجباته بكلّ إخلاص ممكن، ولكن في نهاية المطاف، وقع في مخالفات كبيرة وأهمل واجباته، وربّما نتج تهاونه هذا من شعوره بأنّه لا يمكن الاستغناء عن خدماته، بسبب معرفته الكاملة بجميع التدابير المنزليّة، وبسبب ضعف سيّده الّذي اضطرّ في الآونة الأخيرة، إلى التهديد مرارًا بفصله عن خدمته. ولأنّني كنتُ أعرف رأفة كانط ولطفه، وقسوته وصرامته أيضا، فقد توقّعتُ أنّ مجرَّد تلفُّظه بفصله عن الخدمة، سيكون غير قابل للنقض، لأنّ كلمته كانت مقدَّسة مثلما هو القَسَم بالنسبة إلى

الرجال الآخرين. وصرتُ أحتجُّ في كلّ مناسبة على لامب بسبب ما يرتكبه من تصرّفات حمقاء، وقد ساندتني زوجته في ذلك. كان الوقت يلحُّ علينا لإجراء تغيير في بعض الجوانب، إذ صار من الخطورة أن يستبدل في هذا الوقت خدمةَ كانط الّذي كانت قواه تضعفُ تدريجيًّا بسبب الشيخوخة، برعاية عجوز آخر قد يتهاوى جسده في أيّ لحظة جرّاء الإدمان على الكحول. الحقيقة هي أنّني منذ اللحظة الّتي صرتُ فيها مشرفًا على إدارة شؤون كانط، بدأ لامب يرى نهاية نظامه القديم وقد خان فيه ثقة سيّده الّتي منحه إيّاها في إدارة الشؤون المالية وبعض المهامّ الأخرى، واستغلّه بسبب عجزه، وهذا ما جعل كانط يائسًا، فتصرَّفَ من سيّئ إلى أسوأ، إلى أن أخبرني في صباح أحد الأيّام، وكان ذلك في يناير 1802، وهو يشعر بالإهانة كما لو كان في جلسة اعتراف، أنَّ لامب في الحقيقة قد عامله قبل قليل بطريقة يخجل من تكرارها. لقد صُدمتُ كثيرًا بذلك حتى أنّني أزعجته بالاستفسار عن التفاصيل، لكنّ النتيجة كانت إقالة لامب، خاصّةً وأنّ كانط أصرَّ على ذلك، باعتدال ولكن بحزم. وهكذا تمّ على الفور تعيين خادم جديد يدعى كاوفمان، وصُرفَ لامب في اليوم التالي مع معاش تقاعديٍّ سخيٍّ يتقاضاه مدى الحياة.

هنا يجب أن أذكر القليل عن الأمر الّذي يضفي المزيد من الاحترام على نزعة كانط الخيِّرة. ففي وصيَّته الأخيرة، على افتراض أنّ لامب كان سيستمر معه حتّى وفاته، كان قد وضع له بندًا سخيًّا للغاية، ولكن بناء على الترتيب الجديد للمعاش التقاعدي الّذي أصبح ساري المفعول فورًا، لم يعد من الضروري بالطبع إلغاء ذلك الجزء من

وصيّته الّذي كتبه في ملحق إضافي، واستهلّه على النحو التالي: «نتيجةً للسلوك السيئ لخادمي لامب، أعتقد أنّه من المناسب...»، إلخ؛ ولكن بعد فترة وجيزة، آخذًا بعين الاعتبار أنّ مثل هذه الملاحظة عن سوء سلوك لامب قد تضرُّ بمصلحته بشكل جدِّي، قام بإلغاء تلك الفقرة، وعبَّر عنها بطريقة لا تُبقي أيّ أثر يدلُّ على استيائه الّذي كان محقًّا فيه تمامًا. وقد سَرَّتْه معرفة أنّ هذه الجملة قد حُذفت، ولم يتبقَّ أي شيء آخر في كتاباته العديدة، سواء المنشورة أو السريَّة، يشير إلى أنّه تحدَّث بلغة الغضب والانفعال، أو يمكن أن يشكّك في الحالة الّتي كان عليها عند موته، حالة سلام مطلق مع العالم بأسره.

ولمّا طالبه لامب بأن يمنحه شهادةً مكتوبة، شعر بحرج كبير، لأنّ توقيره الصارم للحقيقة كان يتعارض، في هذه الحالة، مع دوافعه الخيِّرة والثابتة، فجلس متوتِّرًا قلقًا لفترة طويلة، بينما كانت أمامه الورقة البيضاء الّتي سيدلي فيها بشاهدته، وناقشني عمَّا سيملأ به الفراغات، لكنّني لم أكن مستعدًّا لأن أقدّم له أيّ اقتراح في مثل هذه المسائل. فكتب أخيرا ما يلي، دون أن يعلم أنّ لامب كان يسرقه:

«... لقد خدمني لفترة طويلة بإخلاص، لكنّه لم يصبر -مع ما لديه من مؤهّلات خاصّة- على خدمة رجل عجوز ومُقعَد مثلي».

هذا المشهد من الاضطراب أحدث صدمةً لكانط، عاشق السلام والهدوء، وقد سُرَّ كثيرًا لأنّه نجا منها، وكان من حسن الحظ أنه لم يتعرَّض لموقف من هذا القبيل في الفترة المتبقّية من حياته. كان كوفمان، خليفة لامب، رجلًا محترمًا ومستقيمًا، وسرعان ما تعلّق

بشخص سيّده، واستقرَّت الأمور بعد ذلك على وجه جديد في عائلة كانط، فقد حلّ السلام مرَّة أخرى بين خدم المنزل، بالتخلُّص من لامب المشاكس والميّال للنِّزاع، فانتهت بذلك الحروب الأبديّة التي كانت تستعر بينه وبين الطبَّاخ. فقد كان لامب يقوم بغارة عدوانيّة على منطقة نفوذ الطبَّاخ أحيانًا، وفي أحيان أخرى، يثأر منه هذا الأخير تحت وطأة الشعور بالإهانة، فيشنُّ غارة مضادَّة عليه في أرض القاعة المحايدة، أو يغزوه في معقله الخاصّ في خزانة المؤن. كان الصخب لا ينتهي، ومن حسن حظِّ الفيلسوف أنّ قدرته على السمع بدأت تضعف في تلك الفترة، ما يعني أنّه نجا من مشاهد عديدة سبَّبتها انفعالات البغض والعنف الهمجي الّذي أزعج ضيوفه وأصدقاءه. ولكنّ كلّ شيء تغيَّر بعد ذلك، إذ ساد الصمت العميق في مخزن المؤن، ولم تعد الإنذارات العسكريّة تدوِّي في المطبخ، واختفت المناوشات والملاحقات من القاعة. ومع ذلك، من السَّهل تصوُّر أنّ كانط ما كان ليرحِّب، في الثامنة والسبعين من عمره، بإحداث بعض التغييرات، وإن كانت للأفضل. فقد كان شديد التركيز على توحيد نمط حياته وتماثل عاداته، ذلك أنّه ينزعج بشدّة من أقلِّ تغيير يطال أشياءه وأدواته مهما بلغ صغر حجمها، كالمبراة والمقصّ، حتّى لو تعلّق الأمر بزحزحتها بوصتيْن أو ثلاثا فقط، أو وضعها بشكل مائل قليلًا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأشياء الأكبر حجمًا، كالكراسي مثلًا، فإنّ أيّ خلل في ترتيب وضعها المعتاد، أو أيّ تغيير في عددها بالزيادة أو النقصان، كان يربكه تمامًا، وتسكن عينيه نظرات قلقة كلّما حدّق في توضيبها الجديد، ولا تزول حالته هذه إلّا حين يُعاد ترتيب الأشياء

على النحو الذي كانت عليه في السابق. وبإمكان القارئ أن يتصوَّر، مع وجود مثل هذه العادات، كم كدَّره فعلًا في هذه الفترة من تردِّي قواه أن يتكيَّف مع خادم جديد، بصوت جديد، ووقْع خطوات جديد، إلى غير ذلك.

إدراكًا منّي لهذا التغيير، كتبتُ للخادم الجديد، في اليوم السابق لاستلامه واجباته، قائمةً بكلّ ما في حياة كانط اليوميّة من روتينها المعتاد، بدءًا بالأمور الأكثر أهميّة وصولًا إلى أدقّ التفاصيل وأكثرها تفاهة، وهو ما أتقن إنجازه فعلًا بسرعة كبيرة. ومع ذلك، فقد مررنا بدورة تدريبية للتعوُّد على جميع هذه المراسم، وجعلته يؤدِّي هذه «المناورات» بينما أنظر إليه وأوجِّهه، وبالرغم من هذا لم أكن مرتاحًا بمنحه الحرّية التامّة في أوّل ظهور عمليٍّ له، فأصررت على الحضور في ذلك اليوم الهامّ، وفي الحالات القليلة الّتي لم يقم فيها المجنّد الجديد بما تعلّمه في المناورة على أحسن وجه، كانت نظرة أو إيماءة منّي كفيلة بأن تنبّهه إلى مواطن الفشل، فيتدارك أمره.

من بين المراسم اليوميّة كلّها، كان الإفطار هو الجزء الوحيد الّذي يصيبنا جميعًا بالحيرة، كما لو أنّ لامب وحده قادر على استيعابه والتمكّن من قوانينه، ولم يكن أمامنا إلّا أن نفعل ما في وسعنا. حضرتُ بنفسي عند الساعة الرابعة صباحًا، وكان ذلك اليوم كما أتذكَّر هو الأول من فبراير 1802، وعند الخامسة بالضبط، ظهر كانط، ولم يكن شيء ليعادل دهشته عندما رآني في الغرفة، وإذ أفاق من ذهوله الشبيه بالحلم، مندهشًا كذلك من رؤية خادمه الجديد ومن غياب لامب، ومن وجودي في مثل ذلك الوقت، أمكنه أن يفهم

بصعوبة الغرض من زيارتي، أليس الصديق وقت الضيق؟ ومع كلّ ذلك فإنّ ترتيب مائدة الإفطار ظلَّ لغزًا لم يستطع سوى لامب أن يحلّه. وبعد فترة من ذلك قرَّر كانط أن يتولّى الأمر بنفسه، وبالرغم من أنّ كلّ الأمور أُنجزت على النحو الّذي يُرضيه، إلّا أنّه لم يتخلّص تمامًا من الشعور بالحرج والارتباك، لذلك، أسررت له بأنّني أرغب في تناول كوب من الشاي معه، ومن ثمَّ أدخّن غليونًا برفقته بعد ذلك، فوافق بتهذيب كعادته، ولكن بدا عاجزًا عن تقبّل الوضع في ظلّ الترتيبات الجديدة. كنتُ أثناء ذلك أجلس أمامه مباشرة، وأخيرًا أخبرني بصراحة وتهذيب أنّه مضطرٌّ إلى التوسُّل إليّ كيْ أجلس خارج مجال رؤيته، ذلك أنّه اعتاد لأكثر من نصف قرن على أن يجلس وحده إلى مائدة الإفطار، ولم يستطع أن يتكيَّف بشكل مفاجئ مع تغيير هذه العادة، لأنّ ذلك يشوِّش أفكاره للغاية، فاستجبت لطلبه، بينما ذهب الخادم إلى غرفة الانتظار، حيث سينتظر أيَّ نداء جديد، واستعاد كانط رباطة جأشه، إلّا أنّ هذا المشهد نفسه تكرَّر في مثل هذه الساعة ذات صباح صيفيّ رائع بعد بضعة أشهر.

من ذلك الوقت فصاعدًا سار كلّ شيء على ما يرام، أما إذا حدث خطأ بسيط بين حين وآخر، فإن كانط كان يبدو متسامحًا ومتساهلًا جدًّا، متوقّعا ألاّ يعرف الخادم الجديد كل أساليبه الخاصة ورغباته، ولكن هذا الرجل تكيَّف بدوره مع طابع كانط العلمي بطريقة لم يكن لامب قادرًا على القيام بها. كان كانط صعب الإرضاء في ما يتعلّق بمسائل النطق، وكان هذا الرجل ذا قدرة كبيرة على التقاط النبرة الحقيقية للكلمات اللاتينية، ومعرفة عناوين الكتب، وأسماء أصدقاء

كانط أو ألقابهم، وهي أشياء لم يكن ليتقنها شخص أحمق مثل لامب. وقد أخبرني أصدقاء كانط القدامى على وجه الخصوص أنّه لمدّة تزيد عن ثلاثين عامًا من قراءته للجريدة الّتي ينشرها هارتونغ، كان لامب يسلّمها له يوم صدورها، وهو يقول مكرّرًا الخطأ الفادح نفسه:

«السيّد الأستاذ، ها هي صحيفة هارتمان».

ليردّ عليه كانط متسائلًا: «ماذا؟ ما هذا الذي تقوله؟ صحيفة هارتمان؟ لقد أخبرتك، إنه ليس هارتمان، بل هارتونغ؛ والآن، كرِّر من بعدي: «ليس هارتمان، بل هارتونغ».

فتبدو حينذاك، علامات التجهّم على وجه لامب، ويقف منتصبًا كأنه جندي يقوم بالحراسة، وبنبرة رتيبة اعتاد أن يصيح بها مناديًا «مَن هناك؟»، يردِّد مزمجرًا:

- «ليس هارتمان، بل هارتونغ».
- «والآن مرَّةً أخرى!»، يقول كانط، ويردِّد لامب بالنبرة نفسها.
- «ليس هارتمان، بل هارتونغ».
- «الآن لمرَّة ثالثة»، يصيح به كانط، وللمرة الثالثة يردِّد لامب التعس:
- «ليس هارتمان، بل هارتونغ».

وكلّما حلَّ موعد صدور الجريدة، يعيد ذلك الأحمق العجوز الّذي لا أمل في إصلاحه، الخطأ ذاته، ليخضعه كانط مرّة أخرى للتمرين نفسه، وهكذا يتكرّر هذا المشهد الغريب الأقرب إلى العرض العسكريّ باستمرار. وعلى الرغم ممّا حظي به الخادم الأول من مزايا،

فقد غمر كانط بتسامحه ولطفه الشديدَيْن اللّذَيْن عُرف بهما، خادمه الجديد بطبعه لما أثبته من تفوّقٍ على سلفه، بل كان متساهلًا جدًّا مع نقائص الخدم الآخرين كلّها، دون أن ينسى صوت العجوز لامب ووجهه، الخادم الّذي اعتاد عليه طوال أربعين عامًا. وقد أصابتني الدهشة لما لمسته في مذكّرات كانط من شعور بالألفة تجاه خادمه القديم، رغم أنّه لم يكن يتقن فعل شيء، وعلى نقيض الأشخاص الآخرين الّذين يدوِّنون ما يرغبون في تذكُّره، نجد أن كانط قد دوَّن هنا ما كان يرغب في نسيانه:

«ملاحظة: فبراير 1802، يجب أن أنسى اسم لامب إلى الأبد».

في ربيع هذا العام (1802)، نصحتُه بأن يخرج إلى الهواء الطلق، فقد مرَّ وقت طويل جدًّا منذ أن خرج آخر مرَّة، وصارتْ مثل هذه الجولات شبه مستحيلة، غير أنني اعتقدتُ أن حركة العربة والهواء قد ينعشانه، ولم أعوّل كثيرًا على قدرة المشاهد والأصوات الربيعيّة، لأنّها لم تعد تؤثّر فيه منذ فترة طويلة. من بين جميع التغييرات التي جلبها هذا الربيع، لاحظتُ أنّ شيئًا واحدًا فقط أثار اهتمام كانط، وكان يتوقَّعه ويتوق إليه بحماس، وبدا أنّه من المؤلم مشاهدته تقريبًا، وهو عودة العصفور الدُّوري ليغرّد في الحديقة أمام نافذته. كان هذا الطائر يغنّي لسنوات في الموضع نفسه، وحين تأخَّرت عودته هذا الربيع، لاستمرار برودة الطقس فترة أطول من المعتاد، ازداد قلق كانط. وصار تمامًا مثل اللورد بيكون[1] الّذي عُرف بحبّه الطفولي للطّيور

(1) الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون (1561- 1626).

بشكل عامّ، وبذل جهدًا كبيرًا، بصورة خاصّة، لتشجيع العصافير على بناء أعشاشها فوق نوافذ مكتبه، وعندما حدث هذا، (وهو ما كان يتكرَّر في أحيان كثيرة بسبب الصمت الّذي يخيّم على مكتبه) كان يراقب حركاتها ببهجة ولطف، وهي مشاعر لا يغدقها الآخرون إلّا على أناس مثلهم. وعودة إلى ما كنّا بصدده، فقد رفض كانط في البداية اقتراحي بالذهاب في جولة إلى الخارج قائلا: «سأغوص في العربة، ونسقط معًا مثل كومة من الخِرَق القديمة». لكنّني ألححتُ بلطف وحثثتُه على المحاولة، مؤكّدًا له أنّنا سنعود على الفور إذا أُجهد أكثر ممّا ينبغي. رافقتُه مع أحد أصدقائه المسنِّين في ذلك اليوم الدافئ من أوّل أيّام الصيف إلى مكان صغير كنت قد استأجرته في الرِّيف. وبينما كنا نتجوّل بالعربة في الشوارع، كان كانط مسرورًا عندما وجد نفسه قادرًا على الجلوس في وضع مستقيم، وعلى تحمُّل اهتزاز العربة، وبدا مبتهجًا بمرأى الأبراج والمباني العامّة الأخرى الّتي لم يرها منذ سنوات، ثمّ وصلنا إلى مكان وجهتنا وهو في حالة معنويّة عالية، فشرب فنجانًا من القهوة وحاول التدخين قليلًا، ثمّ جلس مستمتعًا بدفء الشمس، مستمعًا بسرور لزقزقة الطيور الّتي تجمَّعت حول هذا المكان بأعداد كبيرة، وكان يميِّز كلّ طائر بتغريدته، ويشير إليه باسمه الصحيح، وبعد أن أمضينا حوالي نصف ساعة، انطلقنا في رحلة العودة إلى المنزل، وشعور بالمرح لمْ يغادره، فيما لاحت عليه علامات الرّضا التامّ، وهو يعبّر عن استمتاعه بذلك اليوم.

في هذه المناسبة، تجنَّبتُ متعمّدًا أن آخذه إلى أيّ من الحدائق العامّة، حتّى لا أفسد فرحته بتعريضه للأنظار الفضوليّة للعامّة.

لكن رغم ذلك، ذاع في كونيغسبرغ، خبرُ خروجه للتنزّه، وبينما كانت العربة تسير في الشوارع المؤدّية إلى منزله، احتشدت مجموعات من السكّان في كلّ ركن مررنا به، وعندما انعطفنا نحو الشارع حيث يوجد المنزل، وجدناه يعجُّ بالناس. تقدَّمنا ببطء إلى الباب، فتركوا لنا ممرًّا في وسطهم، وسار كانط، متّكئًا على ذراعينا، أنا وصديقه، وهو ينظر إلى الحشد الّذي رأيتُ فيه وجوه العديد من الأشخاص المرموقين والغرباء المعروفين، وكان بعضهم يرى كانط للمرّة الأولى، بينما يراه كثير منهم للمرّة الأخيرة.

مع اقتراب شتاء عام 1802-1803، اشتكى أكثر من أيّ وقت مضى من اضطرابات المعدة الّتي لم يتمكّن أيّ طبيب من أن يسكّن آلامها أو يشرح علّتها. ومرَّ الشتاء وهو لا يزال يشكو من هذه الأوجاع. كان متعبًا من الحياة، ويتوق إلى ساعة الرحيل. قال ذات مرّة: «لن أكون مفيدًا للعالم أكثر من ذلك، أنا عبءٌ على نفسي». سعيتُ مرارًا إلى الترفيه عنه من خلال الحديث عن الرحلات التي سنقوم بها معًا عندما يأتي الصيف مرّة أخرى، فقام بحساب ذلك بكلِّ جدِّية، حتّى أنّه وضع مقياسًا أو تصنيفًا منظَّمًا: 1. النزهات، 2. الرحلات القصيرة، 3. الرحلات الطويلة، ومن المتعذّر التعبير عن شيء يعادل نفاد صبره وهو في انتظار مجيء الربيع والصيف، لا بسبب ما فيهما من عوامل جذب، بقدر ما كانا موسمين للسفر والترحال، وقد كتبَ في دفتر يومياته هذه الملاحظة: «أشهر الصيف الثلاثة هي يونيو ويوليو وأغسطس»، ما يعني أنها كانت أشهر السفر الثلاثة. أثناء الحديث معه كان يعبِّر عن توقه المحموم لتحقيق رغباته بطريقة محزنة

ومؤثّرة، إذ أنّ جميع من سمِعه تعاطف معه بشدَّة، وتمنَّى لو وُجدت وسيلة سحرية للتبكير بحلول فصل الصيف.

كانت غرفة نومه في هذا الشتاء دافئة غالبًا، وهي الغرفة التي احتفظ فيها بمجموعة صغيرة من الكتب تصل إلى أربعمائة وخمسين مجلّدًا كانت بشكل أساسي نسخًا أهداها له المؤلّفون. قد تبدو هذه المعلومة غريبة، لأنّ من المنطقيّ أن تكون لدى كانط الّذي توسَّع نطاق قراءاته، مكتبة أكبر من تلك الّتي يملكها، لكنّه كان في حاجة إلى مثل ذلك بأقلّ ممَّا يحتاج إليه معظم العلماء، بعد أن كان في سنوات عمره السابقة أمينًا لمكتبة القلعة الملكيَّة، كما استمتع منذ ذلك الحين بأنّه كان أوّل من يرى كلَّ كتاب جديد يتمّ نشره بناءً على اتّفاق مع هارتكنوخ[1] (ناشره الذي استفاد بدوره من الشروط المتساهلة الّتي قدّمها له كانط بخصوص حقوق نشر أعماله الخاصّة).

في نهاية هذا الشتاء، أي في 1803، بدأت معاناة كانط مع الكوابيس للمرّة الأولى، وقد اشتكى في بعض الأحيان من أحلام مرعبة كانت توقظه في حالة من الانفعال الشديد، وهي في أغلبها ألحانٌ سمعها تُغنَّى في شوارع كونيغسبرغ عندما كان شابًّا، فيتردَّد صداها في أذنيه بشكل مؤلم، وتخيِّم عليه بطريقة لا يستطيع أي شيء أن يحرّره منها، وقد أبقاه ذلك مستيقظًا لساعات طويلة كان غالبًا ما يغفو بعدها، ومهما كان عمق نومه فإنه ينقطع ثانيةً بشكل مفاجئ بعد

---

(1) جوناه هارتكنوخ J. F. Hartknoch: (1740 - 1789) ناشر ألماني اعتنى بنشر أعمال كانط.

أحلام مرهقة تثير انزعاجه. وفي كلّ ليلة تقريبًا، يسحب الحبل المتّصل بجرس في غرفة خادمه، بعنف وبأقصى قدر من الانفعال، ومهما حاول الخادم الإسراع لتفقّده، فقد كان يصل على الدوام متأخّرًا جدًّا، وهو على قناعة بأنّه سيجد سيّده قد نهض من على سريره ليتّجه مرعوبًا إلى جزء آخر من المنزل. وقد عرَّضه الوهنُ الّذي أصاب ساقيْه لسقطات مروّعة، حتّى أنّني أقنعته إثر ذلك، وبصعوبة بالغة، أن يسمح لخادمه بالنوم معه في الغرفة نفسها.

بدأت معاناته من مرض المعدة تزداد أكثر فأكثر، وقد جرَّب وصفات علاجيَّة مختلفة كان في ما سبق قد رفضها وأدانها بكل وضوح، كتناول بضع قطرات من شراب الروم على قطعة من السكر، أو النّفْطاء[1]، وغير ذلك[2]، لكنّها جميعًا كانت مجرَّد مسكِّنات فحسب، لأنّ عمره المتقدِّم أفقده الأمل في أي علاج جذري، وصارت أحلامه الرهيبة مروِّعة بشكل دائم، فكان مرأى هذه المشاهد الحُلْميَّة مفردةً، أو مجتمعةً، كفيلا بتأليف حبكة كاملة من المآسي العظيمة، وكان تأثيرها عميقًا جدًّا إذ يمتدُّ إلى ساعات بعد اليقظة. ومن بين الكثير من فنتازيا الأوهام الصادمة التي لا توصف، تمثَّل له في أحلامه أشخاصٌ قَتَلة يدورون حول سريره، كما كان منزعجًا جدًّا من قطارات مرعبة تكتظّ بالأشباح وهي تزحف نحوه في الليل، إلى درجة أنه في محاولته

(1) النّفطاء naphtha: من مشتقات النفط غير النقية.

(2) بالنسبة إلى شكوى كانط الخاصة، كما وصفها بعض كتّاب السّير فإن ربع حبّة [حوالي 0.0648 غرام] من الأفيون كل اثنتي عشرة ساعة كان من الممكن أن تكون أفضل علاج له، وربما كانت علاجًا مثاليًّا. (د.ك.)

الأولى للاستيقاظ يظنُّ أنّ خادمه الّذي هرع توًّا لمساعدته ليس سوى أحد القتلة. وكنّا أثناء النهار نتحدَّث عن تلك الأوهام الغامضة، فيما كانط يضحك منها بأسلوبه التهكّمي المعتاد، ثمّ لا يني يسخر من كل أنواع الضعف والتوتُّر العصبي، ولكي يحصِّن ذاته من تأثيرها كتبَ في دفتر يوميّاته: «لا يجب أن أستسلم للهلع من الظلام».

بناءً على اقتراحي بعد ذلك قام بوضع فانوس في غرفته المعتّمة، بشكل تنعكس فيه أشعة الضوء على وجهه، وهو ما نفّره في البداية، إلّا أنّه تصالح مع هذا الوضع شيئًا فشيئًا، وكان تحمُّله لكلِّ ما يمرُّ به يعبِّر بالنسبة إليّ عن ثورة عظيمة أنجَزَها بفعل ما كان يراه من أحلام مروِّعة. بالرغم من أنّ الظلام والصمت المطبق كانَا قبل ذلك، ما يجعله ينام بعمق، دون أن يسمح باقتراب وقع الخطوات من غرفته، أما بالنسبة إلى الضوء، فقد كانت رؤية شعاع من القمر يخترق شقًّا من مصراع النافذة كفيلة بجعله متكدِّرًا، وفي الواقع فإنّ نوافذ غرفة نومه كانت مسدلة الستائر ليلًا ونهارًا، لكن الظلام صار يرعبه، ويضايقه الصمت. وبالإضافة إلى الفانوس، كان هناك مكرِّر[1] في غرفته أيضًا، بالرغم من أن صوته كان في البداية مرتفعًا جدًّا، ولكن بعد أن لُفَّت المطرقة بقطعة قماش، صار الصوت مناسبًا له وغير مزعج.

في هذا الوقت (ربيع عام 1803) بدأ يفقد شهيته، ولم تكن تلك، كما اعتقدتُ، علامةً جيدة. كثير من الأشخاص يصرُّون على أن كانط كان معتادًا على تناول الطعام بشراهة من أجل صحة أفضل[2]،

(1) المكرّر Repeater: جهاز استخدم في القرن التاسع عشر لتجديد إشارات التلغراف.
(2) مثلما أكّد كتّاب سيرة كانط فإنه كان يتناول الطعام مرّة واحدة في اليوم، فوجبة الإفطار

ولكنني لا أتفق مع هذا الرأي، لأنه كان يأكل مرّة واحدة في اليوم، ولا يحتسي الجعّة العاديّة، أمّا الجعّة السوداء القويّة فقد كان في الواقع أشدَّ عدوٍّ لها، وإذا مات رجل في عمر مبكّر، لا يتردَّد في القول:

- «لقد كان مدمنًا على شرب الجعّة، كما أفترض».

وإذا اشتكى شخص آخر من وعكة صحّية، فلك أن تتأكَّد من أنّه كان يسأل:

- «لكن... هل يشرب الجعّة؟».

ووفقًا للإجابة على هذا السؤال، يقوم بترتيب توقّعاته بالنسبة إلى الشخص المريض؛ فالجعة القوية، باختصار وكما أشار دائمًا، إنّما هي سمٌّ بطيء. وبمناسبة هذا الحديث، فقد قال فولتير، ذات مرّة، لطبيب شاب ندَّد بشرب القهوة مستخدمًا الصفة السيّئة نفسها، أي «سمٌّ بطيء»:

«أنت على حق تمامًا، يا صديقي، ولكنّها سمٌّ بطيء جدًّا، بل شديد البطء بشكل فظيع، فأنا أشربها طوال سبعين سنة ولم تقتلني بعد».

لكن كانط بالطبع لم يكن ليردَّ بمثل هذا الجواب في ما يتعلّق بالجعة.

لم تكن تحتوي على شيء أكثر من بعض الشاي، دون خبز، أو أي شيء يؤكل من أي نوع. إلاّ أنّ منتقديه قالوا إنّه كان يتناول 1. إفطارًا مبكرًا في الصباح، 2. إفطارًا سريعًا مع الساعة العاشرة، 3. وجبةً أخرى مع الساعة الواحدة أو الثانية، 4. وجبة مسائية، 5. ثم وجبة العشاء. لقد كان كانط كثيرًا ما يتحدّث عن عدم الإسراف في تناول الطعام والشراب، وخاصة في المساء، وسأختصر كل ذلك بذكر حقيقة واحدة هي أن كانط كان شغوفاً بشيئين فقط طوال حياته هما التبغ والقهوة، ولكنه صار زاهدًا فيهما معًا، فلم يعد يتناول سوى القليل جدًا من التبغ، بينما توقف عن شرب القهوة حتى وفاته. (د.ك)

في الثاني والعشرين من أبريل عام 1803، تمّ الاحتفال بعيد ميلاده بحضور عدد كبير من أصدقائه (وكان آخر عيد ميلاد شهده)، وقد تطلَّع قبل ذلك منتظرًا هذا الاحتفال بتوقعات كبيرة، وسرَّه أن يسمع صدى الاستعداد له، لكن عندما حان الموعد بدا وكأن الإثارة والتوتُّر المفرطين قد تلاشيا، وحاول أن يبدو سعيدًا، إلَّا أن صخب رفاقه الكثر أحبطه وأزعجه، وصارت معنويَّاته مصطَنعةً بشكل واضح، وعندما غادر المدعوُّون بدا راغبًا في إحياء أي شعور حقيقي بالسرور، فاستبدل ملابسه في مكتبه، ثم تحدَّث بانبساط بالغ عن الهدايا التي سيقدِّمها، كعادته، لخدم المنزل بهذه المناسبة، فهو لا يشعر بالسعادة على الإطلاق، إلّا تنعّم بها كلّ من حوله أيضا. كان صانع هدايا بامتياز، دون أن يتساهل في الوقت نفسه مع ما يتطلّبه ذلك من مؤثّرات مسرحيّة مدروسة، وما يرافقها من تهانٍ ومجاملات شكليّة، مع مشاعر وجدانية تُقدَّم بها هدايا عيد الميلاد في ألمانيا[1]. ومع كلّ هذا، فقد خيَّمت على طبعه الجدِّي مسحة من الهزل الشاحب.

---

(1) في هذه المناسبة، وفي كثير غيرها من المناسبات الأخرى، كان ذوق كانط إنجليزيًّا ورومانيًّا. وبشكل آخر فإن بعض الرجال الإنجليز المرموقين، وأتأسّف لقول ذلك، أظهروا في مثل هذه الاحتفالات طابعًا من التخنّث وتصنّع الأصوات الرفيعة، وهو الطابع الذي يغلب على الألمان. وقد وصف السيد كولريدج Coleridge في كتابه «الصديق» التقليد الذي يتبعه الأطفال الألمان أثناء تقديم الهدايا عشية عيد الميلاد (الكريسماس) فأظهر الأم «تصيح فرحًا بصوت عالٍ»، بينما أظهر الأب في صورة عجوز أبله «والدموع تسيل على خدّيه».. إلخ، كل ذلك من أجل ماذا؟ علبة نشوق، أو علبة أقلام رصاص، أو قطعة من المجوهرات! نحن- الإنجليز- نتفق مع كانط في مثل هذا العرض من العواطف الجيّاشة، ونشكّ في أن دموع الأب ليست أكثر من نتاج لجرعة من شراب الروم. إن الرّقة لا تجعلنا نحتفظ إلا بما يتوافق معنا من المناسبات، وبالأسباب التي تبرّرها وتحافظ على وقارها. (د.ك)

حلّ صيف 1803، وأثناء زيارة لكانط ذات يوم، صُعقتُ وهو يأمرني بجدّية بالغة، بأن أعدَّ ما يلزم من تجهيزات ومصاريف ضرورية للقيام بجولة خارجية واسعة، فَلم أُبدِ أيّ اعتراض، ولكنّني استفسرته عن دوافعه لاتّخاذ هذا القرار، فزعم أن شعورًا مزريًا ينتابه بسبب معدته، وأنه لم يعد يحتمل ذلك. ولمعرفتي بمدى الأثر الذي يمكن أن يتركه فيه بشكل دائم اقتباسٌ من أحد الشعراء الرومان، أجبتُ ببساطة:

«كلّ فارسٍ يُردِفُ ما يحميه»[1].

لم يقل شيئًا في تلك اللحظة، لكن الجديَّة المؤثرة التي تدعو إلى الشفقة، والتي كان يقضي بها الصلاة من أجل جوٍّ أكثر دفئًا، جعلتني أشكُّ في أنه لم يكن يشعر بالرضا عن رغبته تلك، ولو جزئياً على الأقل، لذلك اقترحت عليه أن نذهب في نزهة إلى الكوخ الذي زرناه في العام السابق. فأجاب:

«أيّ مكان، لا يهمّ إلى أين، شرطَ أن يكون بعيدًا بما فيه الكفاية».

قمنا بهذه الرحلة القصيرة في أواخر يونيو، وبينما كان يصعد إلى العربة، طلب منّي بوضوح تامّ:

«لنبتعد، نبتعد، دعنا فقط نذهب بعيدًا بما يكفي».

كنّا بالكاد قد وصلنا إلى مدخل المدينة ولكن الرحلة بدت بالنسبة إليه كما لو أنّها استغرقت وقتًا طويلاً. وما أن وصلنا إلى البيت الريفي

(1) باللاتينية في الأصل: Post equitem sedet atra cura (حرفيًّا: خلفَ الفارس تركبُ عنايةٌ سوداء)، وهو بيت للشاعر الروماني كوينتوس هراشيوس Q. Horatius (توفي عام 8 ق.م.) بمعنى: المكانة المرموقة، أو الثروات، تجلب الاهتمام وتحرس أصحابها من حيث لا يدرون.

حتّى وجدنا القهوة تنتظرنا، ولم يكد يشربها في وقت قصير، حتّى أمر بإحضار العربة قرب الباب لبدء رحلة العودة التي بدت له طويلة بشكل لا يُحتمل، على الرغم من أنها لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة، وكان يصيح أثناء ذلك متعجِّبًا على الدوام:

«ألن ينتهي هذا الأمر أبدًا؟».

كان فرحه كبيرًا عندما وجد نفسه مرةً أخرى في مكتبه، فخلع ملابسه واتجه إلى السرير، ثم نام بسلام، دون أن يتعرَّض مرةً أخرى لما يزعجه من أحلام.

بعد فترة وجيزة، بدأ يتحدَّث ثانيةً عن السفر إلى بلد بعيد، فكرَّرنا نزهتنا السابقة بين حين وآخر لمرات عديدة، على الرغم من أن الظروف كانت متقاربة كلَّ مرة، وتنتهي دائماً بخيبة أمل في ما يتعلق بالوقت الممتع الذي توقعناه، إلا أن تلك النزهات كانت، بلا شك، مفيدة عمومًا لصحته ومعنوياته، خاصةً أن الكوخ الريفي يقع تحت صفٍّ من أشجار الحور الطويلة، ويمتدُّ بجواره وادٍ قريب يتعرَّج في ثناياه جدول ماء صغير يتَّصل بشلَّال كان مسمع صوته الهادر يبهج كانط ويشرح صدره في الأيام المشمسة الهادئة. في إحدى النزهات، وتحت تأثير مشهد غير متوقَّع، تداخلت فيه سحب الصيف وأشعّة الشمس، أيقظتْ مناظر الريف الطبيعية فجأةً ذكرى مفعمة بالحيوية كانت كامنةً في أعماق نفسه منذ فترة طويلة، فتذكَّر كيف مرَّ في شبابه ذات صباح صيفيٍّ رائع بكوخ على ضفاف نهر صغير يخترق أرض صديق الطفولة العزيز الجنرال ڤون لوسو، وبما تولَّد لديه من

انطباعات قويَّة بدا ذلك الصباح وكأنه يعيش مرةً أخرى ويتحدَّث مع أولئك الذين رحلوا ولم يعودوا على قيد الحياة.

قام كانط بنزهته الأخيرة في شهر أغسطس من هذا العام (1803)، لا إلى كوخي الريفي، بل إلى إحدى الحدائق، ولكنه أظهر في هذا اليوم نفاد صبر كبيرا. كنتُ قد رتَّبت له أن يلتقي بأحد أصدقائه القدامى في الحديقة، وحضرتُ هذا اللقاء مع اثنين من السادة الآخرين، وحدثَ أنّنا وصلنا أولًا، وقد أصاب كانط من الوهن والضعف ما جعله يفقد قدرته على تقدير الوقت كليًّا، فبعد الانتظار لبضع لحظات أصرَّ على أن بضع ساعات قد انقضت، وأنه من غير المتوقَّع أن يأتي صديقه، ثم رحل وهو في غاية الاضطراب، وعلى هذا النحو انتهت رحلات كانط وجولاته في هذا العالم.

في بداية الخريف لم يعد يرى جيِّدًا بعينه اليمنى، أما اليسرى فلم يكن قادرًا على الإبصار بها منذ فترة طويلة، وقد اكتشف أولى مشاكل عينيه بصدفة مجرَّدة، دون أي سابق إنذار، إذ جلس في أحد الأيام ليرتاح قليلًا أثناء سيره على قدميه، فعنَّ له أن يقارن بين قوة عينيه، ولكنه عندما أخرج جريدة كان يحتفظ بها في جيبه، تفاجأ بأنه لا يستطيع تمييز حرف واحد بعينه اليسرى. كانت عيناه قد أصيبتا في وقت مبكِّر من حياته بحادثتين اثنتين، الأولى عند عودته من إحدى جولاته مشيًا، إذ صار يرى الأشياء مزدوجةً لفترة طويلة من الزمن، والثانية عندما صار أعمى تمامًا، وسواءً اعتُبرت هاتان الحادثتان عرضيَّتين لا علاقة لهما ببعضهما أم لا، فأنا أترك تشخيص ذلك لأطباء

العيون، على أنّه من المؤكَّد أنهما سببَّتا الانزعاج لكانط الذي عاش إلى أن أضعفت الشيخوخة قدراته، وهو في حالة دائمة من الاستعداد بجَلَد لأسوأ ما يمكن أن يصيبه، وقد صُدمتُ بعد ذلك عندما فكّرتُ في الدرجة الّتي من الممكن أن يتفاقم فيها إحساسه المرهق بالاتّكال على الآخرين إذا فقد قدرته على الإبصار، وكان يقرأ ويكتب بصعوبة كبيرة، إلّا أن كتابته في الواقع كانت أفضل قليلًا من تلك التي يمكن أن يجرِّب بها معظم الناس مهاراتهم وهم مغمضو العيون. ومن عاداته القديمة في القيام بدراساته وحيدًا منفردًا، لم يكن يسرُّه أن يسمع الآخرين يقرؤون له، وقد أزعجني يوميًّا بجدّيته المثيرة للشفقة وأنا أتوسَّل إليه بأن يستخدم نظّارات للقراءة، ومهما أوحت لي مهارتي المتعلّقة بالبصريَّات فقد جرَّبتُ أن أرسل إليه أفضل أخصائيّي العيون لإعداد نظّارته، وإعطائه ما يلزم من توجيهات لتغييرها، لكن كلّ ذلك كان دون جدوى.

في هذه السنة الأخيرة من حياته كان كانط يستقبل زيارات الغرباء على مضض، فإذا لم تطرأ ظروف خاصّة، فإنّه يرفضها تمامًا، وأعترفُ أنني كنتُ في حيرة ممَّا يجب أن أقول لزوَّاره الذين عبروا مسافة طويلة جدًّا لرؤيته، فأن أرفض رغبتهم في لقائه بكل عناد أمرٌ لم يكن يمنحني في الواقع إلا شعورًا بالرغبة في جعل نفسي ذا أهمية أمامهم. كما يجب أن أقرَّ كذلك بأنني بين بعض حالات الإلحاح والعبارات الفظَّة من ذوي الفضول وغير المهذَّبين، شاهدتُ العديد من الأشخاص المرموقين والأكثر إحساسًا بوضعه كمعتكف عجوز لا يرغب في رؤية أحد، وقد أرفقوا البطاقات الّتي أرسلوها إليه بشكل عامّ ببعض

الرسائل، معبِّرين فيها عن تجنُّبهم لإرضاء رغباتهم في رؤيته دون أن يجازفوا بأيّ إزعاج له. الحقيقة هي أن مثل هذه الزيارات قد أزعجته كثيرًا، لأنّه شعر بنوع من الهوان وهو عاجز على استقبال أحد نظرًا للظرف الصحّي الّذي يمرُّ به، بينما كان قادرًا في الوقت نفسه على إدراك عدم قدرته على الاستجابة بشكل لائق لما يحاط به من اهتمام.

لقد سُمح للبعض بلقائه على كل حال، تبعًا لما يمثِّلونه، ووفقًا لحالة كانط المعنوية آنذاك. من بين هؤلاء، أتذكَّر أننا سُعدنا بشكل خاص بلقاء السيد أوتو[1]، وهو الرجل الذي وقّع معاهدة السلام بين فرنسا وأنجلترا مع اللورد ليفربول الحالي (ثم اللورد هاوكسبوري). كما أتذكَّر في هذه اللحظة، شابًّا روسيًّا لما أبداه من حماسة مفرطة أعتقد أنّها متصنَّعة تمامًا، فأثناء تقديمه لكانط، خطا نحوه بسرعة، وأخذ كلتَا يديه وقبَّلهما، لكنّ كانط الّذي عاش كثيرًا بين عدد من الأصدقاء الإنجليز اكتسب قدرًا كبيرًا من التحفُّظ الإنجليزي المترفّع، وكان يكره ما يمتُّ لمثل هذا السلوك بصلة، فانكمش بعض الشيء من هذا النمط من التحيَّة، وصار محرجًا إلى حدٍّ مّا، وعلى كلّ حال، فإنّ أسلوب ذلك الشاب لم يكن بسبب مشاعره الحقيقيَّة كما أعتقد، ففي اليوم التالي اتّصل مرةً أخرى، وطرح بعض الاستفسارات عن صحّة كانط، وكان متلهِّفًا للغاية لمعرفة ما إذا كانت الشيخوخة قد أنهكته إلى هذا الحدّ، وفي النهاية التمسَ منَّا أن نمنحه تذكارًا صغيرًا من الرجل

(1) السيد أوتو Monsieur Otto: المفوض الفرنسي لتبادل أسرى الحرب مع بريطانيا التي مثلها اللورد ليفربول Lord Liverpool، ثم اللورد هاوكسبوري Lord Hawkesbury.

العظيم ليحمله معه، ووجد الخادم بالصدفة جزءًا صغيرًا ملغيًا من مخطوط أصلي لكانط بعنوان «الأنثروبولوجيا»، وبعد موافقتي أعطى هذه الصفحات للشاب الروسي الذي استقبلها بفرح بالغ، وقبّلها، وفي المقابل أعطاه الدولار الوحيد الذي بحوزته، ومعتقدًا أن ذلك لم يكن كافيًا، نزع معطفه وصدريته وألبسهما للخادم عنوةً، أما كانط الذي كان ينفر ببساطة شخصه الفطريّة من التعاطف مع أي غلوٍّ في المشاعر، فلم يمتنع، مع ذلك، عن الابتسام مجاملةً بعد أن أُخبر بهذا المثال من السذاجة والحماس اللذين أبداهما الشاب المعجب به.

وقعَ بعد ذلك حدثٌ جللٌ في هذه المرحلة من حياة كانط التي شارفت على نهايتها، ففي الثامن من أكتوبر 1803، وللمرة الأولى مذ كان صغير السن، صار يعاني في مرضه بشكل خطير. عندما كان طالبًا في الجامعة عانى لفترة مّا من البُرَدَاء[1] التي اعتاد إثرها ممارسةَ رياضة المشي سيرًا على القدمين، وفي سنوات لاحقة تحمَّل بعض الألم جرَّاء كدمة تعرَّض لها رأسه، وباستثناء ذلك لم يقع فريسة للمرض مطلقا، أما سبب مرضه هذا فهو كما يلي: كانت شهيّته في الآونة الأخيرة غير منتظمة، أو بالأحرى فاسدة، فهو لم يعد يستمتع بأيّ شيء سوى الخبز والزبدة والجبن الإنجليزي[2]، وفي السابع من أكتوبر، جلس إلى طاولة

---

(1) البَرُدَاء ague: الحُمَّى الباردة، وتسمّى أيضًا: النافضة.

(2) يقع السيد واسيانسكي في خطأ معتاد بشأن وفاة كانط، ويترك انطباعًا بأن كانط (الذي كان منذ مرحلة الشباب نموذجًا للاعتدال) قد توفي بسبب الانغماس في الملذات الحسيّة. من الواضح أن السبب في وفاة كانط كان الاضمحلال العام لقواه الحيوية، وعلى وجه الخصوص، ما أصاب جهازه الهضمي من وهن أدى به إلى التقشّف والامتناع عن الأكل. هذا هو السبب أو الحدث العرضي الذي جعل ذلك السبب فعّالًا وهو يعود

العشاء، برفقتي أنا وصديق آخر، ولم يتناول سوى القليل من الطعام على الرغم من محاولاتنا لحثّه وصرف انتباهه، وتصوَّرتُ للمرة الأولى أنّه بدا مستاءً من إلحاحي عليه، كما لو أنّني تجاوزتُ المسموح به في أداء واجباتي. كان مصرًّا على أن الجبن لم يسبق أن سبَّب له أي ضرر، وأنه لن يضرَّه في تلك اللحظة، وأسقط في يدي فأمسكتُ لساني، وتركته يفعل ما يشاء، وكانت النتيجة متوقَّعة: ليلة مضطربة أعقبها يوم من المرض الذي لا ينسى. في صباح اليوم التالي سار كل شيء كالمعتاد حتى الساعة التاسعة، كان كانط يتَّكئ على ذراع أخته، وفجأةً سقط مغمًى عليه، وعلى الفور أُرسل شخص مّا ليخبرني، فهرعتُ إلى منزله حالما علمت، ووجدته مضطجعًا على فراشه الذي نُقل آنذاك إلى مكتبه، وهو فاقد للوعي وغير قادر على الكلام، وكنت قد استدعيت طبيبه مسبقًا، وقبل أن يأتي كانت الطبيعة قد أعادت كانط بعض الشيء إلى نفسه، وخلال ساعة تقريبًا فتح عينيه، وطفق يتمتم على نحو مبهم حتى المساء، ثم تعافى قليلًا، وبدأ يتحدث بتعقُّل. وللمرة الأولى في حياته لازم سريره لبضعة أيام دون أن يأكل شيئًا.

في الثاني عشر من أكتوبر انتعش مرةً أخرى، فتناول بعض المرطّبات، وطلب أن يتناول طعامه المفضَّل، أي الجبن، لكنني كنت مصمِّمًا على معارضته بحزم، مجازفًا بأن أتعرَّض لاستيائه وعدم رضاه، وذكرتُ له العواقب الكاملة التي أدَّى إليها انسياقه وراء رغباته في

إلى السابع من أكتوبر 1803، وسواء قال السيد واسيانسكي ذلك أو لم يقله، فليس من المهم في حالة كانط المنهكة أن نتّفق على ما إذا كان مرضه قد بدأ في أكتوبر أو نوفمبر. (د.ك)

المرة الأخيرة، فلم يبدُ عليه أنه قد تذكَّر شيئًا. استمع إلى ما قلته باهتمام شديد، وعبَّر بهدوء عن قناعته بأنني كنت مخطئًا تمامًا، ولكنه استجاب لطلبي في تلك اللحظة، ومع ذلك وجدته بعد بضعة أيام، قد طلب القليل من الخبز والجبن، بما يعادل فلورين[1]، ثم دولارا، ثم أكثر، وإذ رفضتُ ذلك مرةً أخرى، اشتكى بشدة، لكنه امتنع عن طلب هذا الأكل بشكل تدريجي، على الرغم من أنه كان في بعض الأحيان يعود إلى صنيعه ذاك، فيأمر لا إراديًّا بطلبه.

في الثالث عشر من أكتوبر استؤنفت مآدب الطعام الّتي اعتاد أن يقيمها، وكان في مرحلة النقاهة، يتماثل للشفاء، لكنّه نادرًا ما تعافى واستعاد روحه المعنويّة الهادئة التي حافظ عليها قبل إصابته بالنوبة الأخيرة من مرضه. أحبَّ كعادته أن يطيل هذه المأدبة، وهي الوحيدة الّتي تناول فيها الطعام، أو «تصدَّرها»[2]، كما عبرَّ بنفسه عن ذلك، ولكن كان من الصعب في تلك اللحظة تسريعها والتعجيل بها استجابةً لرغباته، ومن هذه المأدبة التي انتهت حوالي الساعة الثانية ذهب مباشرة إلى السرير، وغفا قليلًا لفترات متقطّعة، استيقظ خلالها على نحو منتظم بسبب الأحلام المريعة. في السابعة مساءً أصابته نوبة من الانفعال الشديد استمرت حتى الخامسة أو السادسة صباحًا، أو ربما بعد ذلك، واستمرّ طوال الليل يراوح بين المشي والاستلقاء، فيخلد إلى الراحة والهدوء حينًا، ولكن يصيبه انزعاج شديد في أحيان

(1) فلورين Florin: عملة أنجليزية قديمة تساوي 2 شلن، أو قطعة نقدية فضية هولندية.
(2) باللاتينية في الأصل coenam ducere: أي يتصدّر مأدبة الطعام.

كثيرة أخرى، ولذلك صار من الضروريّ أن يجلس شخص مّا معه، ولأنّ خادمه الشخصي قد أرهقته أعباء اليوم، لم يكن أيّ شخص مناسبًا لهذه المهمّة على ما يبدو، أكثر من شقيقته الّتي ظلّت لزمن طويل، تتلقَّى معاشًا سخيًّا منه، وكانت أكثر الأقارب صلةً به، وهو ما يجعلها الشاهد الأفضل على حقيقة أنّ أخاها الشهير لم يُرد أي وسائل راحة أو عناية غير اعتيادية في ساعاته الأخيرة. وبناءً على ذلك طُلِبَ منها أن تبقى إلى جانبه فتعهَّدت بمراقبته، بالتناوب مع خادمه، وخُصِّصتْ منضدة لاستخدامها الخاصّ، مع منحة إضافيّة تُصرف لها، وقد اتّضح أنّها امرأة هادئة ودمثة، فلم تثر أيّ اضطرابات بين الخدم، وسرعان ما كسبت احترام أخيها بأسلوبها المتواضع وسلوكها الخجول. ولعلّي أضيف أيضًا، بما لديها كذلك من مودّة أخويّة حقيقية أبدَتْها تجاهه حتّى النهاية.

كان الحدث الذي ألمَّ به في الثامن من أكتوبر قد أثَّر في قدراته فعلًا، لكنه لم يقضِ عليها نهائيًّا. لفترات قصيرة بدا أن الغيوم قد انقشعتْ عن عقله المهيب، فأشرق كما كان من قبل. وخلال هذه اللحظات القصيرة من عودة الوعي، عاد إليه أيضًا لطفه المعتاد، وأعرب بطريقة مؤثرة للغاية عن امتنانه للمجهودات التي يبذلها مَن حوله للعناية به، وعن إحساسه بالإزعاج الذي يسبِّبه لهم. أما في ما يتعلق بخادمه على وجه الخصوص، فقد كان متلهِّفًا جدًّا لأن يمنحه مكافأة سخيَّة، وألحَّ عليَّ بشكل جدِّي ألَّا أكون شديد البخل في التعامل معه. لم يكن كانط في الواقع أقل سخاءً من الأمراء في استخدام أمواله، حتى وإن لم يُعرف عنه التعبير عن شغفه الشديد

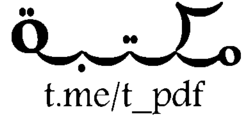
بازدراء المال في أي مناسبة، إلا عندما كان يعلّق على الأفعال أو العادات المنحطَّة أو البائسة، أمّا أولئك الّذين لم يعرفوه سوى في الشوارع، فيحسبونه بخيلًا لأنّه كان يرفض بشكل ثابت، ومن باب المبدأ، الاستجابة لجميع المتسوِّلين المعتادين، ولكنّه من ناحية أخرى، كان سخيًّا مع المؤسسات الخيريَّة العامة، وقد قام سرًّا بمساعدة من يعرفهم من فقراء على نحو أكبر بكثير مما كان متوقَّعًا منه، كما تبيَّن أن هناك العديد من المتقاعدين الآخرين الّذين يعيشون على ما يقدِّمه لهم من هبات، وهي حقيقة لم تكن معروفة أبدًا لأيٍّ منَّا إلى أن أدَّى فقدانه البصر وأمراض أخرى إلى قيامي بواجب دفع هذه المعاشات. يجب أنْ أذكر أيضًا أنّ ثروة كانط الكاملة الّتي بلغت نحو عشرين ألف دولار، كانت نتاجًا لأعماله طيلة ستّين عامًا تقريبًا، وقد عانى بنفسه العوز والحاجة في شبابه، على الرغم من أنّه لم يضطرّ أبدًا للاقتراض من أحد، وتلك الظروف التي مرَّ بها، تعبِّر عن مدى إلمامه بقيمة المال، كما تعزِّز ما لديه من خصال الكرم والسخاء بشكل كبير.

في ديسمبر 1803، صار غير قادر على التوقيع باسمه، وكانت قدرته على الإبصار قد خذلته في الكثير من الأحيان، حتى أنه ذات يوم لم يستطع العثور على ملعقته أثناء العشاء دون مساعدة، فصرتُ أقوم بقطع ما على صحنه من طعام إلى قطع صغيرة، ثمّ أضعها في ملعقة وأوجِّه يده للعثور عليها. لكن عدم قدرته على التوقيع باسمه لم ينشأ من العمى فحسب، فجرّاء فقدانه الذاكرة، لم يستطع تذكّر الحروف التي يتألَّف منها اسمه، وعندما يتمّ تكرارها له لم يكن يتمكن من تصوُّر كيفية رسم الحروف. وفي نهاية نوفمبر الماضي، لاحظتُ أنّ

حالات العجز هذه تنمو بسرعة وتطغى عليه، ونتيجة لذلك أقنعته بالتوقيع المسبق على جميع الإيصالات الّتي يتوجّب دفعها في نهاية العام؛ وبعد ذلك، ولمنع كل النزاعات -بناءً على تصوُّري- منحني سلطة قانونيّة للتوقيع نيابةً عنه.

بقدر ما تدهورت صحّة كانط أكثر، حافظ بين حين وآخر على طابعه الاجتماعي المرح. كان يوم ميلاده دائمًا موضوعًا محبوبًا بالنسبة إليه، وقبل بضعة أسابيع من وفاته، كنتُ أحسب الوقت الّذي مازال أمام حلول تلك الذكرى، فقلت له متوقِّعًا ما سيحدث من بهجة ومرح حينئذ:

«كل أصدقائك القدامى سيجتمعون معًا، ويشربون كأسا من الشمبانيا لصحتك».



وكانت إجابته:

«هذا ما يجب أن يحدث على الفور».

ولم يكن ليرضيه فعلًا، إلّا اجتماع الأصدقاء كي يتناول معهم كأسًا من النبيذ، ويحتفل بروح معنوية عالية بعيد ميلاده الذي لم يكن مقدَّرًا له أن يراه مطلقًا.

في الأسابيع الأخيرة من حياته، حدث تغيُّر كبير في معنوياته، فعلى مائدة العشاء التي كان يسودها روح من المرح حتى ذلك الوقت، خيَّم صمت كئيب، وقد أزعجه أن يرى رفيقيه على العشاء يتهامسان سرًّا، بينما هو يجلس كأنّه ممثّل أخرس على المسرح لا دور له يؤدِّيه، كما أدَّت محاولة إشراكه في الحديث إلى شعوره بكآبة أعمق، لأنّ حاسة

السمع لديه كانت في ذلك الوقت ناقصة جدًّا، وكان ما يبذله من جهد للاستماع مؤلمًا بالنسبة إليه، وصارت تعبيراته، حتى عندما تكون أفكاره دقيقة بما فيه الكفاية، غير مفهومة تقريبًا.

من اللافت للنظر، أنّه في الحدِّ الأدنى من الاكتئاب، وقد صار عاجزًا تمامًا عن التحدُّث في شؤون الحياة العادية، كان لا يزال قادرًا على الإجابة بشكل صحيح وواضح، وبدرجة مثاليّة ومذهلة، عن أيّ مسألة فلسفيّة أو علمية، لا سيما في الجغرافيا الطبيعية أو الكيمياء أو التاريخ الطبيعي. وقد تحدّث بشكل مرْضٍ في أسوأ حالاته، عن الغازات، وذكر مقترحات مختلفة تمامًا عن كيبلر[1]، وخاصّة قانون المسارات الكوكبيَّة. وأتذكّر على وجه الخصوص، أنّه في يوم الاثنين الأخير من حياته، عندما أدَّى أقصى ما بلغه من عجز إلى جعل أصدقائه يذرفون الدموع، جلس بيننا غير مدرك لكل ما يمكن أن نقول له، منهارًا على كرسيه مثل كومة لا شكل لها؛ أصمّ، أعمى، شبهَ خَدِر، وبلا حراك، ولكنني بالرغم من ذلك همستُ للآخرين بأنّني سأدعو كانط للمشاركة في الحديث بكلّ حيويّة، ولم يصدِّقوا ذلك، فاقتربت منه وسألته عن «المورِّين في الساحل البربري»[2]، وتفاجأ الجميع، باستثنائي طبعًا، عندما أعطانا على الفور ملخصًا عن عاداتهم

(1) يوهانس كيبلر J. Kepler: (1571– 1630) فيزيائي وفلكي ألماني.

(2) موريّو الساحل البربري Moors of Barbary: اصطلاح قديم ساد بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر للدلالة على سكان شمال إفريقيا من المغرب إلى غرب ليبيا. ويشير لفظ المور إلى دلالات مختلفة، منها: المسلمون في شمال إفريقيا، أو مزيج السكان من عرب وأمازيغ وأوروبيين، أو تجار العبيد في هذا الإقليم، وهكذا.

وأعرافهم، وأخبرنا بالمناسبة، أن حرف (ج) في كلمة «الجزائر» يجب أن يُلفظ معطَّشًا.

خلال الأسبوعين الأخيرين من حياة كانط، كان يشغل نفسه دون توقف بطريقة بدت لا هدف منها، ومتناقضة مع نفسها. فتجده يربط ياقته ثمّ يفكّها لعشرين مرّة في كلّ دقيقة، ويفعل ذلك أيضًا بالحزام الذي كان يضعه حول ثوبه الفضفاض، في اللحظة التي يشبكه فيها، يعود ليحلَّه بنفاد صبر، ثم لا يصبر حتى يشبكه ثانيةً؛ ليس ثمة وصفٌ يمكنه أن ينقل على نحو وافٍ ذلك الانطباع بالضجر الكئيب الذّي كان يمرُّ به من الصباح إلى الليل وهو يقوم بهذه الأعمال السيزيفية: أنْ يفعل شيئًا ثم ينقضه ثمّ يفعله ثانيةً وهكذا، قَلِقًا من عجزه عن فعله، ومن ثمَّ قلقًا من قدرته على ذلك.

في هذا الوقت، نادرًا ما كان يتعرَّف على أي منَّا نحن الذين كنَّا حوله، بل عاملنا جميعًا على أننا غرباء. حدث هذا أولًا مع أخته، ثم معي، وأخيرًا مع خادمه الشخصي. لقد أزعجني هذا الانسلاخ عن الواقع أكثر من أيّ حالة أخرى مرَّ بها، على الرغم من علمي بأنّه لم ينس عاطفته نحوي، فقد منحتني طريقة مخاطبته لي هذا الشعور باستمرار. وكان تأثيرها أكبر بكثير عندما تعود إليه سويَّةُ إدراكه وذكرياته، لكن ذلك يحدث على فترات متقطِّعة، وفي هذه الحالة، يغمره الصمت أو الهذيان الطفولي، أو يستغرق في التفكير أو الذهول والشرود، أو ينشغل بما يتهيَّأ له من أوهام وأطياف... يا له من نقيض آل إليه كانط الذي كان في يوم من الأيام مركزًا لامعًا في أهم الدوائر الّتي عرفتها بروسيا من جهة المكانة والذكاء والمعرفة! وأذكر أنّ شخصًا

مميّزًا جاء من برلين لزيارته، تلبية لدعوة تلقّاها منه خلال الصيف الماضي، فصُدم تمامًا إذ رآه على ذلك النحو، وقال: «ليس هذا كانط الّذي أعرفه، لكنّها الصَّدَفَة الّتي تخفيه!».

ترى ما الّذي كان سيقوله أكثر من ذلك إذا رآه الآن!

حلَّ فبراير 1804، وهو آخر شهر كان مقدّرًا لنا فيه رؤية كانط. ومن اللافت للنظر أنّني وجدتُ، في دفتر اليوميّات الّذي أشرت إليه من قبل، شذرةً من أغنية قديمة كان قد دوَّنها وأرَّخها في الصيف قبل ستّة أشهر من وقت وفاته، مفادها أنّ فبراير هو الشهر الّذي ينخفض فيه وزن الإنسان إلى أقصاه، وذلك لسبب واضح هو أنّه أقصر من بقية الأشهر بمقدار يومين أو ثلاثة أيام. وكانت المشاعر الختاميّة في هذه الشذرة تَظهر بنبرة ملؤها الشفقة العجيبة على ما أشرت إليه من آثار:

«أوه، يا فبراير السعيد!
أنت الأقلُّ حِمْلًا، والأقلُّ ألمًا،
الأقلُّ حزنًا، والأقلُّ شعورًا بالذنب!».

ولكن حتّى في هذا الشهر القصير، لم يكن كانط قد تحمَّل اثني عشر يومًا كاملًا، ذلك أنّه مات في الثاني عشر من فبراير، على أنّنا يمكن أن نقول إنّه مات في الواقع في أوّل يوم منه، ولم يبق سوى خيط ضئيل يشدّه إلى الحياة، من الومضات العابرة الّتي كانت تتسرّب من بين طيّات ألمعيّته القديمة.

في الثالث من فبراير، بدت ينابيع الحياة وكأنّها نضبت وتوقّفت عن العمل، فبدءًا من هذا اليوم، بالمعنى الدقيق للكلمة، لم يعد يأكل

شيئًا، وصار وجوده منذ ذلك الوقت فصاعدًا مجرَّد تمطيط لزخم مستمدٍّ من حياة بلغت ثمانين عامًا، بعد أن تعطَّلت ميكانيزمات قوى الحركة لديه. دأب طبيبه على زيارته يوميًّا في ساعة محدَّدة، وتمّ الاتّفاق على وجودي بشكل دائم لمقابلته، وقبل تسعة أيّام من وفاة كانط، وقع حدث صغير أثَّر فينا، أنا والطبيب، وجعلنا نتذكَّر اللطف والطيبة المتجذِّرين في طبيعته، إذ ما إن أُعلن عن وصول الطبيب في إحدى زياراته المعتادة، حتّى ذهبتُ إلى كانط وقلت له: «لقد جاء الدكتور أ...». غالب كانط نفسه وهو في كرسيه، ومدَّ يده للطبيب، متمتمًا بشيء مّا تكرَّرت فيه كلمة «مراكز» أكثر من مرة، ولكن بنبرة بدا فيها كأنه يحتاج إلى المساعدة لإكمال بقية الجملة، وظنَّ د. «أ» أنه يقصد بالمراكز محطّات خيول النقل المعروفة بهذا الاسم، ولأنّه لم يدرك ما يعنيه كانط، فقد أجاب بأنّ جميع المراكز تعمل، وتوسَّل إليه أن يستجمع قواه، لكن كانط، تابع بجهد كبير، وأضاف:

«العديد من المراكز، مراكز مهمَّة... الكثير من الخير، الكثير من الامتنان».

قال ذلك على نحو بدا مشوَّشًا غير مترابط، ولكن بحماس كبير ورباطة جأش. في الأثناء خمَّنتُ تمامًا ما كان كانط يرغب في قوله بالرغم مما خيَّم عليه من خرَف، وشرحتُ ذلك قائلًا:

«ما يودُّ البروفيسور قوله، يا دكتور «أ» هو هذا: بالنظر إلى المراكز المهمَّة التي تشغلها في المدينة وفي الجامعة، فإنه ممتنٌّ لك جدًّا إذ تتخلَّى من أجله عن الكثير من وقتك المهم (لم يكن د. «أ» يتقاضى أي أجر من كانط)، وأنه يشعر بهذا الصنيع في أعماقه».

وردّ كانط بجديَّة:

«حقًّا... هذا صحيح!».

كان ما يزال يحاول الوقوف، لكنه كاد يسقط أرضًا، وأشرت إلى الطبيب بأنّني على معرفة جيّدة به، وأنّه لن يجلس مهما عانى من الوقوف إلى أن يجلس زوَّاره، وبدا أن الطبيب يشكّ في ذلك، لكنّ كانط الّذي سمع ما قلته بجهد مدهش أكَّد معرفتي بتصرُّفه، وقال هذه الكلمات بكل وضوح:

«سأكون منحطًّا، لا سمح الله، لو نسيت الواجبات الإنسانية».

عندما أُخبرنا أنّ العشاء جاهز، رحل الدكتور «أ» مع وصول ضيف آخر، وكنت آمل بفعل الانتعاش الذي أبداه كانط قبل قليل أن يمرَّ اليوم على نحو أفضل وأن نقيم حفل عشاء لطيفا، لكن آمالي كانت بلا جدوى، إذ تمكّن منه الإنهاك أكثر، فعلى الرغم من قدرته على رفع الملعقة إلى فمه، إلّا أنّه لم يستطع أن يبتلع شيئا، وشعر لبعض الوقت بأنّ كلّ شيء لا طعم له. وآملًا في أن أوفَّق ولو قليلًا، حاولت تحفيز حاسّة الذوق لديه باستخدام جوز الطيب والقرفة وغير ذلك، لكن فشلت محاولاتي كلّها، ولم أستطع حتى أن أجعله يتذوّق البسكويت، أو أي شيء من هذا القبيل. كنت قد سمعته ذات مرّة يقول إنّ العديد من أصدقائه الّذين ماتوا بسبب الدَّنَف[1]، قد أنهوا مرحلة المرض بعد خمسة أيام من التحرُّر التام من الألم، ولكن دون شهيّة أبدًا، ثم دخلوا في غفوتهم الأخيرة، وأدركتُ بالمقارنة أنّه يمرُّ بالحالة نفسها.

(1) الدّنف، أو السّغل، أو التقحّل marasmus: اعتلال عام مصحوب بهزال تدريجي.

في يوم السبت، الرابع من فبراير، سمعت ضيوفه يتحدّثون بصوت عالٍ عن مخاوفهم من أنّهم لن يلتقوا به مرة أخرى، ولم أستطع إلّا أن أشاركهم هذه المخاوف. وفي يوم الأحد، تناولتُ العشاء على طاولته مع صديقه الخاص السيد «ر. ر. ف». كان كانط حاضراً بيننا، وقد أصابه وهن شديد إلى درجة أنّ رأسه كان يتدلَّى على ركبتيه، متكوِّمًا على الجانب الأيمن من الكرسي، فاتّجهت نحوه، ورتَّبت وسائده لرفع رأسه وإسناده، وقلت:

«والآن يا سيدي العزيز، أنت في وضع سليم مجددا».

ولكم كانت دهشتنا عظيمة عندما أجاب بوضوح وبشكل مسموع بعبارة عسكرية رومانية:

«نعم، دِرعًا وقامةً»[1]، ثم أضاف على الفور: «مستعدٌّ للعدو، متأهِّب للمعركة».

كانت قدراته الذهنيَّة (إذا سُمِح لي بالتعبير عن ذلك) تتوهَّج ببطء في رمادها، لكنها ترسل بين حين وآخر بعض اللهب المتَّقد، أو فيضًا مبهرًا من الضوء، يدلُّ على أن النار القديمة مازالت تضطرم تحت الرماد.

في يوم الاثنين، السادس من فبراير، ازداد توتّره وضعفه كثيرا، ولم يقلْ كلمة واحدة، باستثناء ما أجاب به عن سؤالي حول المورِّين، كما ذكرت سابقًا. جلس متطلِّعًا بعينين لا تبصران، ضائعًا في ثنايا نفسه،

---

(1) باللاتينية في الأصل: testudine et facie، (حرفيًّا: سلحفاة ووجه) دلالة على الانتباه والانتظام.

دون أن يبدي أيّ إحساس بوجودنا حوله، وقد ترك لدينا انطباعًا بأنّ طيفًا عظيمًا من زمن منسيٍّ يجلس بيننا.

بدا كانط في هذا الوقت أكثر هدوءًا ورباطة جأش. ففي المراحل المبكّرة من مرضه، عندما دخلت قوّته الّتي لم تتهاوَ بعد، في مواجهة نشطة مع الهجمات الأولى للوهن والاعتلال، كان عرضة لأن يصير نكِدًا حادَّ الطبع، فيتحدّث أحيانًا بفظاظة وجفاء مع خدم المنزل، وعلى الرغم من أنّ هذا يتناقض تمامًا مع تصرُّفه الطبيعي، إلّا أنّه كان في أغلب الأحيان معذورًا فعلًا تحت وطأة تلك الظروف الّتي حدّت من قدرته على تبليغ مقاصده إلى الآخرين كما ينبغي. وهو ما جعلهم يجلبون له أحيانًا، أشياء أخرى غير الّتي طلبها لعدم فهمهم ماذا يريد بالتحديد، وفي أحيان أخرى كثيرة، استحال عليهم تلبية أحد طلباته العصيّة على الفهم رغم محاولات كانط الفاشلة في توضيحها. كما طغى عليه انفعال عصبي عنيف بسبب عدم الاستقرار الّذي أصاب توازن وظائف جسمه الفيزيولوجية، وكان وهَن كلّ عضو من أعضائه يصير أكثر حساسية بسبب عدم تجانسه مع غيره من الأعضاء، لكنّ هذا الصراع قد انتهى الآن، وتقوَّض النظام بأكمله وهو يسير حثيثًا نحو الفناء، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، لم يعد أيّ شيء بإمكانه الترويح عنه، ولم يعد باستطاعته إبداء أيّ حركة تدلُّ على نفاد الصبر، كما لم يعد قادرًا على التصريح بأيّ تعبير يدلّ على الامتعاض.

صرت أزوره ثلاث مرات في اليوم، وفي يوم الثلاثاء، السابع من فبراير، وقد ذهبتُ مع حلول موعد العشاء، وجدتُ أصدقاءه المألوفين يجلسون بمفردهم، فيما يمكث كانط في السرير. كان هذا

مشهدًا جديدًا في منزله، وزاد مخاوفنا من أنّ نهايته قد دنت. مع ذلك، وبعد أن رأيته لا يكفّ عن مغالبة نفسه لينهض، قرّرتُ ألَّا أواجه خطر حرمانه من الجلوس إلى حفل العشاء في اليوم التالي. وهكذا اجتمعنا عند الساعة الواحدة في منزله يوم الأربعاء، الثامن من فبراير، فحيَّيته بأقصى قدر ممكن من المرح، وأمرتُ بتقديم العشاء، وجلس كانط إلى المائدة معنا، وأخذ ملعقة من الحساء ثم وضعها على شفتيه، ولكنه أعادها على الفور ووضعها على المائدة، ثم انسحب إلى الفراش الذي لم ينهض عنه مرة أخرى، إلا لبضع دقائق أُعيد فيها ترتيب السرير.

في يوم الخميس، التاسع من فبراير، استسلم تمامًا لحالة الوهن مستغرقًا فيها كشخص يُحتضر، وصارت هيأته أشبه بالجثّة المسجّاة، وقمتُ بزيارته على نحو متكرِّر طوال اليوم، وعندما ذهبت إليه في الساعة العاشرة ليلًا، وجدت أنّ إحساسه بما حوله قد انعدم، ولم أتمكّن من التقاط أي إشارة على أنه عرفني، ثم تركته لرعاية أخته وخادمه.

الجمعة، العاشر من فبراير، ذهبتُ لرؤيته عند الساعة السادسة صباحًا، وكان الجوُّ عاصفًا جدًّا، وقد سقطتْ ثلوج عميقة في الليل. أتذكَّر -بالمناسبة- أن عصابة مختصّة في السطو على المنازل كانت تشقّ طريقها عبر المباني القريبة للوصول إلى منزل جارٍ كانط، وهو صائغ ذهب معروف. عندما وقفتُ بجانب سريره، قلتُ:

«صباح الخير».

وبصوت ضعيف متلعثم لا يكاد يُسمع، ردّ التحية قائلًا:

«صباح الخير».

فرحتُ إذ وجدته متَّزنًا مدركًا، وسألته إن كان يعرفني، فأجاب: «نعم».

ومدَّ يده فلمسني برفق على خدِّي، ولكنّني عندما عُدته في المرّات اللاحقة خلال هذا اليوم، بدا أنّه قد انتكس ثانيةً وعاد إلى حالة عدم الإحساس والإدراك.

السبت، الحادي عشر من فبراير، اضطجع بعينين ثابتتين لا بريق فيهما، وكان مظهره يوحي بسلام تامّ. سألتُه مرة أخرى، في هذا اليوم، ما إذا كان قد تعرّف إليّ في هذه اللحظة، ولكنّه لم يستطع النطق، فأدار وجهه نحوي وأشار عليّ بتقبيله، فهزَّتني عاطفة عميقة، وأنا أنحني لتقبيل شفتيه الشاحبتين، لأنّني عرفت أنه كان يقصد بهذه الإشارة المهيبة والرقيقة التعبير عن امتنانه لصداقتنا الطويلة، كما يقصد التعبير عن مشاعره، وعن وداعه الأخير، ولم أره على الإطلاق يبدي هذه العلامة عن حبِّه لأي شخص آخر، باستثناء مرة واحدة، قبل أسابيع قليلة من وفاته، عندما جذب أخته نحوه وقبَّلها. كانت القبلة التي قدَّمها لي آخر تذكار عن أنّه قد عرفني.

بعد ذلك، كان مريئه يحدث صوت كريرٍ[1] كلّما قُدِّم له أيّ سائل ليتناوله، كرير أشبه بذلك الّذي تسمعه من شخص يُحتَضر. لقد ظهرت عليه جميع علامات الموت.

كنت أرغب في البقاء معه حتّى ينتهي كلُّ شيء. وكما كنت شاهدًا على حياته ها أنذا أصبح شاهدًا أيضًا على رحيله، لذلك لم أتركه أبدًا

---

(1) الكرير: صوت يسبق حشرجة الموت.

إلّا عندما أُستُدعِيت لبضع دقائق لإنجاز بعض الأعمال الخاصّة. قضّيتُ هذه الليلة حذو سريره، وعلى الرغم من أنه أمضى النهار في حالةٍ من عدم الإدراك، إلا أنه أظهر في المساء علامات واضحة على رغبته في إعادة ترتيب سريره، لذا قمنا بحمله بين أذرعنا، ثمّ أعدناه إلى السرير مرّةً أخرى، بعد أن أُعيد ترتيب ملاءات السرير والوسائد على عجل. لم ينم، وكان يتجنَّب ملعقة السائل التي توضع أحيانًا على شفتيه ويدفعها جانبًا، لكن مع حوالي الساعة الواحدة ليلا تحرَّك بنفسه نحو الملعقة، ففهمتُ من ذلك شعوره بالعطش، وأعطيته كمّية صغيرة محلَّاة من النبيذ والماء، وبما أنّ عضلات فمه فقدت قوّتها الكافية للاحتفاظ بهذه الشربة وكي يمنع انسيابها خارج فمه، رفعَ يده إلى شفتيه إلى أن ازدردها وصوت الكرير يصدر عن حنجرته. وبدا أنّه يرغب في شرب المزيد، فواصلتُ إعطاءه ما يرغب فيه، إلى أن قال بطريقة أصبحت قادرًا على فهمها:

«هذا يكفي».

كانت هذه هي كلمته الأخيرة.

على مدى فترات قام بدفع ملابس النوم، كاشفًا جسده، وكنتُ على الدوام أعيد الملابس إلى وضعها، وفي واحدة من هذه المرَّات وجدتُ أن جسمه بالكامل وأطرافه كانت تزداد برودةً، وأن نبضه كان متقطِّعًا.

في الساعة الثالثة والربع من صباح يوم الأحد، الثاني عشر من فبراير، تمدَّد جسم كانط كأنه يأخذ وضعًا أخيرًا، واستقرّ على حالة

واحدة ستلازمه حتّى لحظة الموت. لم يعد النبض محسوسًا عند فحصه في يديه أو قدميه أو رقبته، جرَّبتُ كل موضع من الممكن أن يَخفق فيه، ولم أعثر على أثر له في أيّ مكان من جسده باستثناء الورك الأيسر الّذي كان يخفق بعنف، ولكن على نحو متقطِّع في معظم الأحيان.

حوالي الساعة العاشرة من الضُّحى صار يعاني من تغيير ملحوظ؛ كانت عيناه متصلِّبتين، وتلاشى لون وجهه وشفتيه وصار ممتقعًا، إلّا أنّه -كما عهدته- لم يظهر عليه أيّ أثر للعرق، رغم أنّ عذابات البشر المحتضرين يصاحبها دفق من العرق البارد في معظم الأحيان.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة عندما اقتربتْ لحظة النهاية؛ جلستْ أخته بجانب السرير، وابن أخته حذو رأسه، فيما كنتُ راكعًا إلى جانبه أراقب تقلّبات النبض في وركه. ثم ناديتُ خادمه ليأتي ويشهد موت سيده الفاضل. الآن... بدأت سكرات الموت، إذا يصحّ تسميتها هكذا، لأنّه لم يظهر أيّ نِزاع. وفي هذه اللحظة تحديدًا، دخل الغرفة صديقه المعروف السيد «ر. ر. ف.» الّذي أرسلتُ شخصًا لاستدعائه. في البداية انخفض إيقاع تنفُّسه أكثر فأكثر، ثم فقد انتظامه كأنّه لم يعدْ يستنشق الهواء، ثمّ انقطعَ تمامًا، وتشنَّجت شفته العليا قليلًا، وبعد ذلك تنهَّد أو أطلق زفرة خافتة، ثمّ انعدمت كلّ حركة، ما عدا النبض الّذي ظلَّ يخفق لبضع ثوان، بإيقاع أبطأ وأكثر خفوتًا إلى أن تلاشى تمامًا وتوقَّف عن الخفقان. أمّا ما صار يدقُّ بوضوح في تلك اللحظة، فقد كان صوت ضربات الساعة الحادية عشرة بالضبط.

***

بعد وفاته بقليل حُلِق شعر رأسه، وتحت إشراف البروفيسور «كنور» أُخذ له قالب من الجبس، ولم يكن مجرّد قناع بل صُبَّ قالبٌ كامل لرأسه، ربّما (كما أظنُّ) لإثراء مجموعة الدكتور غال[1] من نماذج «علم الجماجم»[2]؛ ثمّ سُجِّيَ الجثمان وغُطِّيَ بشكل لائق، وتوافد الناس بأعداد هائلة من جميع الطبقات، الراقية منها والدُنيا، واحتشدوا لرؤيته. كان كلُّ شخص حريصًا على اقتناص الفرصة الأخيرة لكي يعطي نفسه الحقّ في أن يقول: «لقد رأيتُ كانط أنا أيضًا». واستمر ذلك لعدة أيّام، اكتظّ فيها المنزل من الصباح إلى الليل بالناس الّذين كانوا مصعوقين جميعا من ضآلة جسم كانط، لأنّهم يؤمنون بفكرة سائدة جوهرها أنّ الجثمان الهزيل والنحيل ليس مدعاة للاهتمام. أُريحَ رأسُهُ على نفس المسند الذي أهداه له عدد من أساتذة الجامعة، ولا أعتقد أننا نستطيع أن نمنح هذا المسند المزيد من الشرف والتقدير أكثر من وضعه في التابوت، كوسادة أخيرة لهذا الرأس الخالد.

كان كانط قد كتب في مذكرة منفصلة منذ سنوات عن أسلوب الجنازة الّتي يرغب أن تُخصَّص له ونمطها؛ فقد أراد أن تكون في وقت مبكِّر من الصباح، مع أقلّ قدر ممكن من الضوضاء والإزعاج، وأنْ يحضرها عدد قليل فقط من أصدقائه المقرَّبين. وعندما وجدتُ هذه

(1) فرانز جوزيف غال F. J. Gall: (1758 – 1828) طبيب ألماني من رواد دراسة الوظائف العقلية في الدماغ.

(2) علم الجماجم Craniology: دراسة شكل وحجم الجماجم لدى أعراق مختلفة، وهي التسمية القديمة لفراسة الدماغ phrenology التي تعتبر علمًا زائفًا.

المذكّرة، بينما كنت منهمكًا في ترتيب أوراقه بناء على طلبه، قلتُ له رأيي بصراحة، وهو أنّ مثل هذه التعليمات ستجعلني، بصفتي منفذًا لوصيَّته، عُرضة لحرج بالغ، لأنّ تلك الظروف قد تنشأ في الغالب على نحو يجعل التحكُّم فيها أقرب إلى المستحيل، وبناء على هذا مزَّق كانط تلك الورقة، وترك الأمر كلّه لتقديراتي. لقد توقَّعت في الحقيقة أنّ طلّاب الجامعة لن يسمحوا أبدًا بأن يُسلَب منهم الحقُّ في التعبير عن تبجيلهم له خلال جنازة عامّة، وقد أظهر الحدث أنّني كنت على حقّ، فمدينة كونيغسبرغ لم تشهد من قبل -ولا منذ ذلك الحين- تشييع جنازة مهيبة وكبيرة مثل جنازة كانط. لقد أعطت المجلات والصحف العامة، والكتيبات المنشورة بشكل مستقل، وغير ذلك من المطبوعات، تفاصيل دقيقة عن مراسم الجنازة، وهو ما سأذكر هنا عناوينه العامّة فحسب.

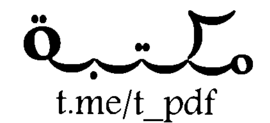
في الثامن والعشرين من فبراير، عند الساعة الثانية بعد الظهر، اجتمع في كنيسة القلعة[1] كبار شخصيّات الكنيسة والدولة، لا المقيمون في كونيغسبرغ فقط، بل من مختلف الأرجاء البعيدة في بروسيا، ورافقهم من هذا المكان جميع أعضاء الجامعة، وقد ارتدوا ملابس رائعة وفخمة لهذه المناسبة، كما رافقهم العديد من ضبَّاط الجيش ذوي الرتب العليا الذين كانوا يكنُّون تقديرًا كبيرًا لكانط، وساروا إلى منزل البروفيسور الراحل، ومن هناك حُمل الجثمان في ضوء المشاعل، بينما كانت أجراس كلّ الكنائس تقرع في كونيغسبرغ،

---

(1) كنيسة القلعة The church of the Castle: كنيسة في الجزء الغربي من قلعة كونيسبرغ.

إلى أن وصلوا إلى الكاتدرائيّة الّتي أضاءتها شموع لا تحصى ولا تُعدّ. وتبع جثمان كانط موكبٌ لا نهائيٌّ من عدة آلاف من الأشخاص مشيًا على الأقدام، وفي الكاتدرائيّة، بعد مراسم الدفن المعتادة المصحوبة بكلّ تعابير التبجيل الوطني الممكنة لتأبين الفقيد، عُزفت الموسيقى على نحو مهيب ورائع. وفي الختام سجّي رفات كانط في مدفن القبو الأكاديمي، حيث يرتاح الآن بين بطاركة الجامعة القدامى.

على رفاته السلام، وله الإجلال الأبدي!


t.me/t_pdf

توماس دي كوينسي

أيام إيمانويل كانط الأخيرة

«هل كانت الفلسفة عند «كانط» مِنْوَالَ تفكيرٍ أم نمَطَ عيشٍ، وضَرْبًا من السّلوك اليوميّ؟». ذاك هو السؤال الّذي يَبرز في الذّهن أثناء قراءة كتاب «الأيام الأخيرة لإيمانويل كانط»، ويستبدّ بالقارئ حال الفراغ منه.

لقد كان «كانط» صارمًا في حياته صرامةَ نسَقِه الفلسفيّ، يُقدّس الواجب في معاملاته اليوميّة وهو الّذي جعل الواجب منشودًا لذاته في أطروحاته عن الأخلاق والقيم.

في هذا الكتاب يترسّم «توماس دي كوينسي» أنفاس «كانط» وهي تصّاعد إلى السّماء في براعةٍ فنيّةٍ لافتة. ويُعَدُّ مشهد الاحتضار من أقسى المشاهد في الكتاب لأنّه، ويا للمفارقة، كان من أمتع المشاهد فنيًّا. ألم تتحدّث الفلسفة الإغريقيّة، تراث «كانط»، عن «لذّة الألم»؟ كان جسد «كانط» يتهاوى أمام ضربات الفناء، وقد شَقي بشيخوخته الشّقاء كلّه فتهادى في موكبٍ مهيبٍ نحو مستقرّ الفناء. بيد أنّ إرثه الفلسفي ظلّ يناطح الفناء باقتدار ويقتصّ لصاحبه في عنادٍ عنيد.

إنّها تراجيديا فناء كلّ إنسان مجسّدًا في «كانط». أمّا «كانط» فيظلّ رغم ضآلة جسده أعظم من الحياة بعقله.

د. فيصل الشطّي

ISBN 978-9938-24-104-4



